ترکستان

قلبِ آسیا -----

عبدالعزیز چنگیز خان



من طبع ونشر
الجمعیة الخیریّة الترکستانیة

فهرس



مقدمة

بقــلم المؤلف

على المرء فى هذه الدنيا واجبات ترتبط بذمته ، وتتحقق بها سعادة دنياه وآخرته ، وأهمها فى حياة الشخص واجبان :

واجبه الدينى وواجبه الوطنى . . . ولقد كنت منذ نشأتى أشعر بايمان عميق يدفعنى إلى أداء هذين الواجبين ، فرأيت أن خدمة بلادى تعد وفاءاً بهما ، وقياماً بحقهما فى وقت واحد .

وذكرت أننى إذا وفقت إلى اخراج كتاب باللغة العربية فى تاريخ تركستان . فقد خدمت الدين والوطن ، وأرضيت الله والأمة .

إن تاريخ الترك لن يعرف منفصلا عن تاريخ الاسلام ، كما أن الاسلام لا يمكن استيفاء عصوره وأجياله بحثاً واستقصاء بغير تاريخ الأتراك فكلا التاريخين مرتبط بالآخر ومتمم له ــ فهما كالروح والجسم لا ينفصلان ، وكالنور والحرارة لا يفترقان ! . ! .

قمت بهذا الواجب فعلا ، فصنفت كتاباً يشتمل على مجلدين كبيرين عن بلادى (منذ بزوغ فجر تاريخها إلى اليوم) . وأطلقت عليه اسم «تركستان الخالدة» ، وكنت أحاول أن أخرجه للناس فى صورته الكاملة ، فحالت أزمة الورق والظروف الحاضرة دون الوفاء بذلك ، فآثرت التريث والانتظار . . . .

حتى شرفتنى (الجمعية الخيرية التركستانية) و (الجالية التركستانية بمصر) ؛ بتكليفى باصدار رسالة موجزة عن تاريخ تركستان ، فتلقيت هذه الرغبة النبيلة بما هى جديرة به من تلبيه واستجابة ، ثم توالت على الرسائل من تركستان تتعجل عودتى إلى الأوطان ، وأنا بدورى لست أقل شوقا الى الوطن ، من الوطن حين يدعونى الى الاستنارة بضيائه ، والحياة السعيدة بين ارضه وسمائه . . . . .

وردت على الرسائل الكريمة من أشقائى : (فضيلة المفتى مطيع الله مخدوم ، وصاحبا العزة : عبدالحميد مخدوم ، وآى مخدوم) . فكأنها صورة الوطن بدت لعينى ، ومثلت أمامى ، ولما كنت مضطراً إلى تلبية الرغبتين ، والمسارعة الى تحقيق الواجبين فقد نشرت هذه الرسالة تحقيقاً للغرض الدينى والوطنى ، آملا أن يجدها المسلم المطلع عليها مشتملة على جملة صالحة من تاريخ

تركستان ، فان هذا الباب من التاريخ يقع من المراجع في صورة موزعة ، ولا يكاد الباحث يقع في المصادر العربية منها على كتاب شامل لأجيال تركستان كلها الى العهد الأخير . ففي هذه الرسالة على إجمالها ، وصغر حجمها عجالة صالحة يجد فيها القارىء صورة مصغرة لعصور تركستان التي سجلتها على وجه من الاختصار ، وهي تعرض على القارىء الاحداث والصور وتكشف له في مشاهدها عن الملوك والأسر . . حتى اذا أقبل هذا العصر يحمل في طياته احتلال الروس لتركستان الغربية ، والصين لتركستان الشرقية . انتهى الكتاب وانطوت صحائفه مؤقتاً - فلعلي عائد الى استكمال هذا البحث بالحصر ، واستيعاب ما اشتملت عليه حوادث هذا العصر . فمن أراد بعد ذلك استيفاء المعلومات الضافية عن تاريخ تركستان ، «ففي تركستان الخالدة» غناء وشفاء ، ولن أدع هذه المقدمة تمر قبل أن أختتمها بشكر الجمعية الخيرية التركستانية ، والجالية بأكملها - راجياً الله عزوجل أن يمنحني السداد في هذا الجهاد العلمي ، وأن يكتب السعادة والتوفيق لشعب تركستان ، فهو ولي العناية ، وهو المستعان .

عبدالعزيز جنكيز خان
ابن قاضي القضاة الشرعية ، في تركستان الشرقية
(العلامة داملا عاشور أعلم اخوند البوكوري)
«الينكيحصاري رحمة الله عليه»

تمهيد

تركستان هى تلك البلاد الجميلة الخضراء التى تشقها الأنهار الكثيرة ، الغزيرة المياه بموارها العذبة الصافية ، وتكتنفها الهضاب والنجاد ، وبها آثار أول مدنية ، وأقدم حضارة . . . . تشهد لآبائنا وأجدادنا بما كان لهم من نبوغ فى الفن ، وعراقة فى المجد والسلطان ، وتقوى فى نفوسنا الروح القومية ، والاعتزاز بذكريات الماضى المجيد .

لقد كانت تلك البلاد مهاد الأتراك ، ومغرس دوحتهم ، ومنبت روضتهم ، ومنشأ أصولهم وفروعهم ، وموطن طارفهم وتليدهم ، ومستقر قديمهم وجديدهم . منها بدأ مجدهم ، واليها ينتهى ميثاقهم وعهدهم .

بدأت نشأتهم الأولى على أرضها الخضراء ، وتحت أديمها الصافى الكريم ، فتكونت وحدتهم ، وقامت دولتهم ، وانبعثت نهضتهم ، واستقامت حضارتهم . وسجلت فى أزهى صحائف التاريخ مدنيتهم .

عاشوا فى ذلك المهد السخى بأنعم الله ، وذلك البساط المخضر كأنه قبس من جنة الله ، فانعكست مناظره البديعة على مشاعرهم ، وانطبعت صورته فى نفوسهم ، وتمثلت حقيقته فى سجاياهم .

ثم تعاقبت الدهور والأجيال ، وهى شاهدة لهم بالسيادة ، مقرة لهم بالأصالة ، فى السياسة والقيادة ، فاذا شاءت الأقدار للعشيرة الحاكمة منهم أن يجرى عليها حكم التغيير ، نجمت من أعراقهم عشيرة أخرى ، لتعيد ذلك المجد الوفير ، حتى يزداد فى كل دولة إشراقاً ، ويملأ أوطاناً وآفاقاً .

كانت تركستان قبل التاريخ وبعده رافعة العلم فى آسيا ملكا وسلطاناً . ضاربة فى أعراق القدم بقدم راسخة فى العز والفخار ، وظهر فى سماء التاريخ من ملوكهم وخواقينهم نجوم ساطعة ، وأبطال جبابرة - استطاعوا أن يبسطوا ظل عظمتهم على القارات النائية والممالك المترامية ، وقد أثبت الباحثون من علماء الآثار والتاريخ : ان تركستان أول بلاد اكتشفت فيها زراعة الحبوب وتألف الحيوان ، وكان الأتراك فيها يعرفون الزراعة قبل التاريخ . وهم الذين اقتادوا الخيول والأغنام ، وغيرها أول مرة تحت إدارة الانسان .

ومن الوثائق التى تدل على أن تركستان كانت مهد الحضارات البشرية ما اكتشفته بعثة الحفائر والتنقيب الأمريكية سنة ١٩٠٤م ، فقد عثرت البعثة المذكورة على آثار تاريخية فى شرقى بحر قزوين قريباً من مدينة (عشق آباد) . تدل الآثار المذكورة ، على أن تركستان لعبت فى المدنية دوراً هاماً ، وسبقت بها سائر سكان البسيطة ، وقد شهد رئيس البعثة المذكورة . العالم الأثرى المشهور الامريكى (پومبالى Pumpelly) بعد ما درس الآثار التى عثر عليها ، وتناولها بالبحث العلمى . بأن مدنية العصر الحجرى الجديد عاشت فى تركستان قبل تسعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح ، كما أن تربية الحيوان وجدت بها قبل ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد ، والصناعات المعدنية قبل ستة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد عثر فى القسم الشمالى من تركستان على آثار تاريخية فى بعض قبور قدماء الأتراك ، وفى القلاع التاريخية القديمة ، وهذه الآثار تشهد بأن تركستان لعبت أقدم دور فى المدنية .

وقد كتب بعض علماء أوروبا باعجاب عن المجموعة الأثرية التاريخية الموجودة الآن فى متحف لندن ، والآثار التاريخية التركستانية التى أتت بها بعثة ألمانية من مدينة (تورفان Turfan) ،

فى رحلاتها العلمية الأربعة سنة ١٩٠٢م، و١٩٠٤م، و١٩٠٧م، و ١٩١٤م، واستوعبت فى متحف برلين ، وهذه الآثار التى تشغل جناحاً خاصاً فى المتحف المذكور، والآثار التى توجد الان فى متاحف «ليننجراد» و «موسكو» و «توبسك» و «كيرسنيارسك» تدل على أن قدماء الأتراك كانوا بارعين فى الفنون الجميلة ، والصناعات الدقيقة التى تشهد بمبلغ تقدمهم ، ومهارتهم فيها .



التقسيم السياسى

هذه البلاد الشاسعة الأطراف ، الضاربة كما ترى بعرق أصيل فى أقدم مدنيات الدنيا ، تمتعت بالاستقلال والحرية الكاملة التامة فى جميع أجيال التاريخ قبل الاسلام ، وبعده ، ولم تتغير وحدتها السياسية ، واستقلالها ، إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى حيث وقع بعضها فى أيدى الصين ، والبعض الآخر فى أيدى الروس .

أما القسم الذى استولت عليه الصين فيعرف : بالتركستان الشرقية ، وتبلغ مساحتها (١ ر ٥٠١ ر ٠١٣) كيلومتراً مربعاً ويقدر أهلها بنحو اثنى عشر مليوناً من السكان . . . . . . والقسم الثانى الذى استولت عليه روسيا يدعى بالتركستان الغربية ، وتبلغ مساحة أرضها (٤ر١٠٦ر٠٠٠) كيلومتراً مربعاً ، وتشتمل على ست جمهوريات سوفياتية شيوعية حمراء ، وهى جمهوريات . (أوزبكستان) و (توركمانستان) و (تاجيكستان) و (قازاقستان) و (قيرغزستان) و (قاراقالباغستان) ، ويبلغ عدد سكانها وفق

إحصاء ١٧ يناير سنة ١٩٣٩م (١٧٫٦٢٦٫٧٦٠ نسمة) ، وبذلك يكون مجموع سكان التركستان الشرقية والغربية حوالى ثلاثين مليوناً ، فاذا ضمت اليها الأجزاء التركستانية الصغيرة التابعة لايران وأفغانستان ، بلغ المجموع أكثر من خمس وثلاثين مليوناً من الأنفس ، كلهم من سلالة الترك بل هم أصل الترك - يتكلمون باللغة التركية المحضة ، وتجمعهم وحدة الدم ، ووحدة اللغة ، ووحدة الدين والعقيدة والمذهب . وكذا وحدة الأخلاق والتقاليد ، ووحدة الجنس والتاريخ ، ووحدة المصالح والأمانى والآمال .

فتركستان هى البلاد الوحيدة فى الدنيا من حيث أن لغة أهلها واحدة ، وكذلك دينهم ، بل ومذهبهم الفقهى ، وأيضا جنسهم وعاداتهم . كل ذلك يجرى فى البلاد على نسق واحد مع اتساع رقعتها ، وانبساط صفحتها .

ومهما كانت قوة الفاتحين والمستعمرين ، فانه لم يستطع ولن يستطيع غالب فى الغرب ، ولا قاهر فى الشرق أن يمزق وحدتها المعنوية ، وقوتها الروحية - وإن مزقها الاستعمار تمزيقا شكلياً فى الظاهر ، وحاول إطفاء نورها ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

فالبلاد إذن بلاد تركية يسكن فيها شعب تركى ، ويتكلم سكانها اللغة التركية منذ أقدم عصور التاريخ ، ويتدين الجميع

بالاسلام ، ويتفقهون على مذهب الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان رحمه الله .

وتمتد مساحة البلاد من بحر قزوين ونهر أورال غرباً ، إلى سد الصين شرقاً ، ومن سيبيريا ومنغوليا شمالا ، إلى بلاد إيران وأفغانستان والهند والتبت جنوباً . وتبلغ مساحتها الكلية (٤٠٧٠١٣ر٥ كيلو متراً مربعا) أى أنها أكبر من مجموع مساحة أفغانستان وإيران وتركيا والعراق والمملكة العربية السعودية جميعاً .

وكانت تتألف هذه البلاد عند جغرافيي العرب واليونان من أقاليم «خوارزم» و «صغد» و «ماوراء النهر» و «مرغيانة» و «إريانة» و «خرقانيا» و «باقتريا» و «أشروسنة» و «سيكيتيا» و «سريقا» . وهى نفس البلاد التى نقرأ عنها كثيراً فى المؤلفات الاسلامية القديمة .

وقد اشتهرت تركستان منذ القدم بخصوبة أراضيها الزراعية ، وجمال مناظرها الطبيعية ، وكثرة البحيرات والأنهار ، وعلو الجبال المكسوة بالخضرة والأزهار ، المتوجة بالثلوج الأبدية القرار ، الدائمة الاستمرار . كما اشتهرت كذلك بقصباتها الجميلة ، وقلاعها القديمة ، ومدنها الباهرة ، وقصورها الفاخرة ، وكذا معادنها الوافرة ، ومعاهدها الزاهرة ، ومساجدها العامرة ،

وحدائقها الغناء ، وآثارها الشهيرة ، وسهولها الواسعة ، وكروسها الشاسعة ، وأزهارها النفيسة ، وأثمارها الشهية .

أنهارها :

تجرى خلال هذه البلاد أنهار كثيرة عذبة ، صافية المرآة جميلة المرآى ، أهمها . «جيحون» و «سيحون» فى التركستان الغربية ، ونهرى «إيلى» و «تاريم» فى التركستان الشرقية .

وهذه الانهار وما يتفرع منها من الترع والنهيرات قد ربطت البلاد بسلسلة فضية ، تنبت إلى جانبها الجنات الخضراء ، والمروج الفيحاء .

صحاريها :

وهناك توجد كذلك صحارى واسعة شاسعة ، مثل صحراء «تكلا مكان» وصحراء «أوست يورت» وصحراء «قزيل قوم» وصحراء «آق قوم» ومع أنها غير مأهولة بالسكان فانها مستودع لكنوز حافلة بالآثار والتحف القديمة .

جبالها :

أما الجبال فى تركستان فان الأهمية العظيمة فيها ترجع إلى سلسلة جبال «تيانشان» (تكرى طاغ) ، (Tanri Tag) وهى

العمود الفقرى لكيان البلاد جميعاً ، ومنها تنحدر السيول المنهمرة التى تكون هذه الانهار الاربعة الفضية . والمركز العام لهذه السلسلة ، وأعلى نقطة فيها هو قمة «خان تكرى» (Han Tanri) يبلغ ارتفاعها ٧٣١٥ متراً وهى كتلة جبلية سفوحها جنات خضراء وأوساطها ثلوج لؤلؤية بيضاء ، وأما أعاليها فكتل صخرية سوداء .

مدنها :

من أهم مدن تركستان تاشكند ، ويبلغ عدد سكانها (٥٨٥٠٠٠٥) وسمرقند (١٣٤٣٤٦ نسمة) ، وبخارى (٥٠٣٨٢ نسمة) ، وخوقند (٨٤٦٦٥ نسمة) ، وأنديجان (٨٣٦٧٧ نسمة) ، ونمنكان ، (٧٧٣٠١ نسمة) ، وعشق آباد ، (١٢٦٥٨٠ نسمة) ، وچيمكند ، (٧٤١٨٥ نسمة) ، وسەمەى (Semey) ، (١٠٩٧٧٩ نسمة) ، وقار اغاندى ، (١٦٥٧٧٩ نسمة) ، وألما آتا ، (٢٣٠٥٢٨ نسمة) ، وبشبك (٩٢٦٥٩ نسمة) ، وچارجوى ، (٥٤٧٣٩ نسمة) كل ذلك على وجه التحديد وفق إحصاء ١٧ يناير سنة ١٩٣٩م ، - ومدينة كاشغر نحو (٢٥٠٠٠٠) ، ويار كند (٤٠٠٠٠٠) وختن (١٥٠٠٠٠) ، واأقصو (٧٠٠٠٠) ، وكوجار (٧٠٠٠٠) ، وكيريا ...٣٠٠٠٠) ، و (قولجا ٩٠٠٠٠) ، وأورومچى (٣٥٠٠٠) ، و بوكور (Bugur) (٣٠٠٠٠) و كورلا (٢٩٠٠٠) ، وتورفان ٢٥٠٠٠) وآلتاى (٢٥٠٠٠) ، وهذا على وجه التقريب .

السكان و عاداتهم

أما سكانها الاتراك فهم أمة أمينة لمبادئها ، قوية فى إيمانها متحدة فى أمانيها ، يحس حاضرها بما يشعر به باديها .

تشتمل نفوسهم على أجلى صفات الكرم والشهامة والاعتداد بالعزة والكرامة ، فهم يحبون الغريب إذا قدم اليهم ، ويبتهجون برؤية الضيف ويستعدون فى كل لمحة للدفاع عن الوطن كلما نودوا إلى الجهاد ، وهم لا يعرفون معنى للجبن والتردد ، وفيهم روح الحمية والاباء ، وشعارهم العزيمة والمضاء ، وقبلة الجميع خدمة الوطن وإعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيل الله ، وهم معروفون منذ القدم بحبهم لوطنهم وحريتهم ، وعند ما تسمعهم ينشدون أناشيدهم الحماسيـــة تعـرف جيـــداً ـــ كم يحـب التركستانيون الحرية ويعشقون الاستقلال ولقد تجلى فى تاريخ هذه الامة العزيزة صدق قتيبة ابن مسلم الباهلى البطل الاسلامى ، وفاتح التركستان حيث يقول ، «إن التركى أحن إلى وطنه من الابل إلى معاطنها» .



تركستان قبل الاسلام

الدولة الهونية التركية :

كان التركستانيون منذ القدم يعيشون فى عز خالد ومجد تالد ، يميلون بطبيعتهم إلى الغزو والفتح ، ويتغنون بالفروسية والفخر بالنصر ، والاستشهاد فى ساحات الوغى ، ويفتحون بلاداً كثيرة ، ويهاجرون إليها ، فيحكمونها ويبسطون نفوذهم عليها ، وينشرون فى ربوعها مطارف حضارتهم ، حتى خفق على ارجائها علم الاتراك عهداً طويلا كانت فى غضونه كلمتهم أعلى الكلمات ، ودولتهم أمنع الدولات ، وحضارتهم أرقى الحضارات ، ولغتهم أسمى اللغات .

ولقد قامت منهم فى أزمنة مترامية فى القدم دولة عظيمة تسمى : «دولة الهون» . وفى المصادر الصينية (هيونج نو) ، وكان تاريخ هذه الدولة فى مضمار التقدم يتاخم تاريخ الصين ويسير معها جنباً إلى جنب ، وتدل على ذلك الوثائق الصينية القديمة التى يرجع عهدها إلى ثلاثة عشر قرناً قبل الميلاد ، وكانت هذه الدولة التركية دولة قوية منظمة تعد من أكبر الدول الشرقية ،

كما أن حضارتها تعد من أرقى الحضارات الاسيوية فى ذلك العصر .

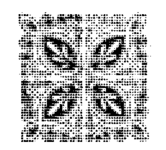
وكان الصينيون دائماً فى فزع وخوف من هذه الدولة التركية العظيمة التى كانت تهددها منذ الأزمنة الاولى .

وقد بنى فغفور الصين «شى - خوانغ - تى» الصد الصينى الكبير لصد هجمات هؤلاء الاتراك الهون ، ولكن لم يجدهم نفعاً ، إذ دخلوها مراراً وحكموها قروناً ، وبلغت هذه الدولة التركية الهونية فى عهد الخاقان (مته خان) بن الخاقان (تئوسان خان) أوج عظمتها ، إذ انضوت ست وعشرون دولة تركية تحت علم هذه الامبراطورية . . . . . وقام لأول مرة بناء الوحدة التركية العظيمة ، تضم أواصر جميع الشعب التركى القاطن من بحر اليابان إلى بحر قزوين ، ونهر فولجا وجبال أورال — كما أن امبراطور الصين اضطر إلى دفع إتاوة سنوية ، بعد انهزام الجنود الصينية أمام الجيوش التركية الزاخرة فى معركة حاسمة وقعت سنة ١٩٩ ق . م . . وما زالت تلك الامبراطورية العظيمة فى أوج عظمتها ، وإشراق حضارتها حتى منتصف القرن الأول الميلادى ، ولكنها انقسمت سنة ٤٨م ، فأصبحت دولتين :

إحداها يقع شمالى صحراء الغوبى ، حيث تتكون (دولة الهون الشمالية ، . . . . . .

ثم القسم الجنوبى . لتلك الصحراء ، حيث تألف دولة (الهون الجنوبية) . . .

ثم لم تلبث أن اتفقت الصين بعد ذلك مع الهون الجنوبية وانضمت اليها قبائل تركية أخرى ، وبعض . (قبائل سيانبى) واشترك جميعهم فى القضاء على دولة الهون الشمالية سنة ٩٣ ميلادية ، فهاجر كثيرون منهم الى سواحل بحر قزوين ، وشواطىء نهر أورال ، حيث أسسوا هناك دولتهم من جديد فسميت بدولة الهون الغربية .



دولة الهون الغربية

لم تمض عليهم فى هذا الوطن الجديد إلا مدة يسيرة حتى أخضعوا جميع القبائل المتوطنة فى حدود أوروبا من الاتراك وغيرهم ثم بسطوا نفوذهم : ووسعوا نطاق ملكهم صوب الغرب ، وسيطروا على الاقاليم الواسعة ، التى يطلق عليها اليوم اسم «روسيا الجنوبية» سنة ٣٧٥م بقيادة خاقانهم (بالامير) . ثم تغلبوا على قبائل القوط التى كانت تبسط نفوذها على تلك البلاد .

و بهذا عادت أوربا الشرقية التى كانت من مواطن الترك منذ بزوغ فجر التاريخ الى أصحابها الاتراك . بهذا أصبحت الامبراطورية نافذة السلطان فى هذه الاقطار الشاسعة التى كانت تمتد من تركستان إلى نهر طونا .

وكانت فرق الجنود التركية تتألف من فرسان أبطال ، ولم تكن فى ذلك العصر بأوروبا أمة تستطيع أن تجد سبيلا إلى مقاومة هذه الجيوش المستبسلة التى لم يكن يقف فى طريقها نهر ولا جبل ، مما ملأ القارة الاوروبية رعباً وهلعا ، وكان بها إذ ذاك دولتان قويتان تنازلان الاتراك ، وهما : الدولة البيزنطية ، ودولة روما الغربية . فاستمر الهون الاتراك فى غزوهم وفتوحاتهم ، حتى امتدت مطامعهم إلى الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت تحاول أن تصد هجومهم بما وسعها من الوسائل السلمية ، وبذل

الرشوة والتظاهر بالصداقة ، قصد الاستفادة من هذه الدولة الباسلة ضد أعدائها ، وقد ساعدتها هذه الدولة التركية مساعدة مادية وأدبية ولكن البيزنطيين رغم هذه الاعتبارات والمساعدات كانوا يحرضون الشعوب التابعة للاتراك على أن يشهروا سيوف العداوة فى وجههم لاسترداد استقلالهم ، وتخلصاً من امبراطوريتهم التى ماتزال آخذة فى النمو والازدياد يوماً بعد يوم . وبهذا فسد ما بينهم وبين الاتراك من صلات المودة والتعاون .

الامبراطور آتيلا :

ولما تبوأ آتيلا على العرش ، وتملك بيديه زمام الامور وزعامة الترك وقيادة الجيش ، أخذ قبل كل شىء يفكر فى تنظيم الخطط لتحقيق الآمال البعيدة فتوجه لاحتلال موسيا[١] ثم استولى على «سيرميوم» عاصمة بانونيا القديمة ، وتغلب على البزنطيين فى موقعة عظيمة أمام قلعة (مارسيانوبول[٢]) ووضع الاتراك أيديهم على الارض الواسعة من مضيق الدردنيل وجوار استبول إلى ترموبيل ، ووقع فى أيديهم عدد لا يحصى من الاسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم .

---

١ ـ موسيا هى تلك الاراضى التى تقع بين نهر طونا وجبال بلقان وتراقيا .

٢ ـ مدينة قديمة كانت فى غرب وارنا .

ولجأ البيزنطيون إلى التماس الصلح بعد هذه الهزيمة المنكرة ، وانعقد الصلح فى (مارغوس) لصالح الترك ، وأصبحت الدولة البيزنطية فى حكم المستعمرة التابعة للدولة الهونية التركية .

وبهذا الفتح الباهر ، رفرف علم تركستان على عواصم أوروبا وأخضع فيها الدول المختلفة ، بعد أن أصبحت الدولة البيزنطية فى حكم دولة تابعة لخاقان تركستان (آتيلا العظيم) وامتدت حدود الامبراطورية إلى نهر الرين فى الغرب ، ومن البحر الاسود ونهر طونا جنوباً إلى بلاد اسكنديناوه شمالا هذا فى الغرب .



دولة الهياطلة

وأما فى الشرق ، وفى داخل تركستان فقد كانت تحكم دولة تركية أخرى تسمى : دولة الهون البيض وفى المصادر العربية (الهياطلة) . ـ وقد لعبت هذه الدولة أيضا دوراً هاماً فى تاريخ آسيا ولها أهمية خاصة فى تاريخ الهند والفرس أيضا ـــ إذ استطاعت هذه الدولة توسيع رقعتها فى مدة وجيزة حيث أعلنت الحرب على الدولة الساسانية فى إيران ، وتغلبت على كسرى فيروز ، وألحقت به هزيمة دامغة ، فى موقعة حربية ، شرقى بلخ (سنه ٤٨٤م) .

وبعد تحقيق هذا الفوز اتجهت صوب الهند فاستولت على كشمير ، ونهر الهندوس ، حتى «مالوا» فى الجنوب ، وبذلك أصبحت هذه الدولة التركية التى تسيطر فى تركستان على حوض نهر «تاريم» ، وماوراءالنهر ، والصغد دولة عظيمة تسيطر فى خارج بلادها على أفغانستان كلها ، وحوض نهر الهندوس وكشمير ، وقضت على دولة كوبتا فى الهند ، وعاشت فى عظمتها . . . . إلى أن ظهرت فى تركستان دولة جديدة من أعظم الدول ، وهى دولة الترك العظمى : (تو ـ كيو) (Tukyu) حيث انقسمت مواطنها فى غير الهند بين دولة الساسانية ، وهذه الدولة التركية سنة ٥٦٦م .

دولة توكيو

تأسست هذه الدولة اول الأمر فى منطقة «آلتاى» بعد انقراض الدولة الهونية العظمى . وعاشت هناك إلى القرن السادس الميلادى حتى تقدمت فى الحضارة والرقى ، واستطاع «ايلخان بومين» الذى يعد مؤسساً حقيقيا لهذه الدولة أن يوحد جميع القبائل التركية فى تركستان تحت علمه ، وعين أخاه (استمى - Istimi) ، الذى يعرفه أهل الصين باسم : «شى - تى - مى» وذكره الطبرى (سنجبو خاقان) ، حاكما على المقاطعات الغربية بعنوان (يابغو) ، وأعاد مجد الدولة الهونية العظمى حيث امتدت حدود الامبراطورية من شبه جزيرة كوريا إلى بحر الخزر . . . .

وبذلك أصبحت تركستان مرة أخرى من أكبر دول العالم .

ثم أعلن الخاقان (سوخان بن إيلخان بومين) حرباً على امبراطوريتى . (وى) و (جو) فى الصين ، وأجبرهما على أن يدفعا أتاوة سنوية إلى تركستان . . . ثم تحالف مع نوشيروان ، واشتركا معاً فى القضاء على دولة الهياطلة ، واقتسما أراضيها فيما بينهما — على أن يكون نهر جيحون حداً فاصلا بينهما (أى بين تركستان وإيران) . . .

ولما ظهر الجفاء بينهما استرد من ايران ما كان بيدها من أراضى الهياطلة ، وضمها إلى تركستان بحجة أنها فى الاصل ممتلكات تركية - ويجب أن يعطى ما للترك للترك - وبذلك أصبحت باقتريا ، وأفغانستان ، وجميع البلاد التى تقع بين نهرى جيحون والهندوس تابعة لتركستان من جديد ، وامتدت حدودها فى بعض الاحيان إلى شبه جزيرة القريم فى الغرب .

ونعلم من المراجع البوزنطية أن الترك فتحوا عام ٥٧٦م مضيق القريم ، ووصلوا عام ٥٨١م إلى أسوار خرسون ، وثمت مصادر بوزنطية من عام ٥٦٨م الى عام ٥٩٨م : وكان أول رسل البوزنطيين وهو «زمرخوس» الوحيد من بينهم الذى عبر نهر أتيل (قلجا) وزار مقر خاقان الترك الغربية الذى كان قريبا ، شمالى مدينة كوجا - «عند مدينة بوكور» ودارت بينه وبين الخاقان مفاوضات ترمى الى القيام بحملات مشتركة على الساسانيين .

غير أنهما لم يعقدا حلفا ثابتا ، وما إن مضت سنون قلائل حتى اشتبك الترك فى حرب مع الروم والفرس ، وغزا الترك اللان ، فأضحت مملكة الساسانيين على تخوم الاراضى التركية لا فى تركستان فحسب . بل فى غربى بحر قزوين أيضاً ، وأقيمت أسوار «در بند» لدفع الترك عن البلاد , وشيد الساسانيون

الحصون فى البلاد التى إلى الشرق من بحر الخزر لتدرأ عنهم عادية جيرانهم الترك ، فأقيم سور من الآجر لحماية جرجان ولكن هذا السور لم يقف دون غزوة الترك الظافرة ، (ويقال أن كسرى أنوشيروان هو الذى شيد هذا السور) .

ولدولة الترك هذه أهمية خاصة فى تاريخ حضارات آسيا العامة حيث خلفت من آثار الكتابة التركية القديمة المشهورة بالنقوش (الآرخونية) التى تعد من أخلد المآثر فى سجل الحضارات التركية كما أنها لعبت دوراً مهما فى تاريخ العالم إذ كانت ترتبط بعلاقات سياسية واقتصادية مع الصينيين والساسانيين والبيزنطيين ، ووصلت قوة الدولة فى النصف من القرن السادس الميلادى إلى درجة لم تهدد الصينيين وحدهم بل كانت الدولة الساسانية والبيزنطية ، والصينية ، تحسب حسابها ، وتخطب صداقتها ، وفى ظل نظامها الدقيق أمكن تحقيق المبادلة الاقتصادية ، والأدبية . بين الصين والهند والفرس والروم ، وأصبحت تركستان حلقة الاتصال بين الشرق الاقصى ، وبقية المسكون من الكرة الارضية .

الحركة الفكرية :

كان رجالها يقومون بمهمة نقل الآثار الفلسفية والادبية ، والمدنية ، والاديان ، والتأثر بها ، ثم نقلها من الغرب إلى الشرق ، أو من الشرق الى الغرب .

وفى ظل تلك الدولة العظيمة كانت تركستان لأمن طريقها وحسن نظامها ممراً للاديان والافكار ؛ فاجتازت البوذية ، والمانوية ، والمزدكية والزرادشتية ، وكذلك النصرانية ، التى قدمت الهند وايران والشرق الادنى الى الشرق الاقصى ، عابرة هذه المملكة التركية الشاسعة .

وكانت الدولة تنقسم الى ادارتين مختلفتين : الشرقية ، والغربية ، وكانت الغرب تابعة لادارة الشرق ، ويحكم الغرب أمير من الاسرة المالكة بعنوان (يابغو) . ثم انفصلت ادارة الغرب عن الشرق سنة ٥٨٢م فى عهد الخاقان «شابوليو» بسبب منازعات الامراء ، والدسائس الخارجية .

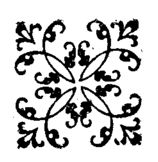
وقد ذاق كلا القسمين وبال هذا الانقسام فيما بعد ، وزادت الدسائس الصينية ، فكانت أكبر عامل على اسقاط الدولة الشرقية بعد انقضاء نصف قرن على هذا الانقسام سنة ٦٣٠م .

وأما الدولة الغربية ، فلم يكتب لها أن يطول بها الزمن أيضا فقد انقرضت سنة ٦٥٩م . على أثر منازعات داخلية وهجوم خارجى ، ولكن التركستانيين أدركوا فيما بعد عاقبة التفرقة والشقاق فظهر منهم زعيم مخلص وقائد محنك ، يسمى : (قوتلوق خان) ، الذى طرد الصينيين الى بلادهم ، وأعلن نفسه خاقاناً على بلاد تركستان سنة ٦٨١م ، وأحيا من جديد دولة

الترك الشرقية ، وأحرز انتصارات باهرة فى كل مواقعه ، وأعاد المجد القديم ، وخلد اسمه مشرقاً فى صحائف التاريخ .

وبعد وفاته سنة ٦٩١م جلس على عرشه أخوه (سوجو خان) ، وكان خير خلف لخير سلف ـ حيث انتصر فى جميع حروبه على الصينيين ، كما انتصر على أتراك «قارلق ، وتوركش» الذين حلوا محل الدولة الغربية ـ فى وقائع مختلفة ، وبعد وفاته جلس على العرش (بيلكه قاغان) بن (قوتلوق خان) ، ثم ابنه . . .

وأخيراً هاجمها «الاويغور» من الاتراك ، بمساعدة القبائل التركية الاخرى ، مثل باسمل ، وقارلق ـ وقضوا على دولة الترك القوتلوقية سنة ٧٤٥م .



دولة تركش

وأما الدولة الغربية ، فكانت قبيلة «تركش» وهى احدى القبائل التركية التى تتألف منها الدولة الغربية ـ حلت محلها ، وقامت بإحياء مجد دولة الترك الغربية ، واستعادة ملكها .

كانت آسيا تغلى بها مراجل الحوادث ، وتغمرها انقلابات عظيمة ، تهدد قوات تركش من الشرق والغرب والجنوب (أعنى الفتوحات العربية الاسلامية) . بينما كانت الصين والتبت تتنافسان أيضاً فى اخضاع ممالك الترك الغربية فى الجنوب .

وفى سنة ٦٧٠م أصبحت التبت أمام أبواب كاشغر منافسا قوياً للصينيين ـ وفى تلك الاثناء ، توفى خاقان تركش (أوچله) سنة ٧٠٦م ، وتربع على عرشه ابنه «سوقو» . ثم حدث نزاع شديد على العرش بينه وبين أخيه ، فوثب عليهما خاقان الترك الشرقية ، وقضى على حكم تلك الاسرة سنة ٧١١م . . .

وعلى أثر ذلك اندلعت نار الحروب بينهم ، حتى ظهر منهم زعيم عظيم ، يسمى «سولو» ، فأخمد الثورات ، ووحد القبائل ، وأعلن استقلاله عن دولة الترك الشرقية . وأقام نفسه خاقانا على تركش سنة ٧١٦م ، وتحالف مع المسلمين العرب ، والتبتيين ضد الصين ، وأظهر بسالة نادرة فى كل مواقعه ، ولم

يرفض مطالب اخوانه الاتراك فيما وراء النهر ، وطخارستان لمساعدتهم ضد العرب المسلمين .

وذهب بنفسه مراراً لمحاربتهم ، فحاربهم فيما وراء النهر ، وطخارستان ، ودفعهم مراراً حتى وصل فى احدى انتصاراته الى خراسان . وفى النهاية دب روح النزاع من جديد بين قبائل «تركش» ، فانشطرت الدولة الى حزبين ، وقتل الخاقان فى المعركة ، وعاش الحزبان مستقلين .

كان هذا النزاع بين الاتراك فرصة سانحة للصينيين ، وللعرب أيضاً ، فأخضع الصينيون بعض القبائل سنة ٧٣٩م كما استرد العرب البلاد التى فقدوها فيما وراء النهر ، وكانت دولة الترك الشرقية حينئذ قد انقرضت بهجوم مشترك من قبائل الترك «الاويغوريين» و «قارلق» و «باسمل» .



الدولة الأويغورية

— : ٥ : —

تأسست دولة الأويغور على ساحل نهر أورخون ، واتخذت (قارا بالغاسون) عاصمة الدولة . كما تأسست دولة قارلق في غربها ، وأعلنت نفسها حاكمة على المقاطعات الغربية ، ثم انتهزت فرصة النزاع بين الحزبين ، واستولت على المقاطعات الغربية ، فتم لها الاستيلاء على «توقماق» و «تالاس» عاصمتي دولة الترك الغربية سنة ٧٦٦م .

أما الدولة (الأويغورية) التي حلت محل دولة الترك الشرقية ، فقد أخذت على عاتقها رفع بناء الحضارة التركية ، وابتكار فنونها ، فنمت قوتها بسرعة .

كانت بلادها تحتوي على تركستان الشرقية كلها ، ومنغوليا ، وعلى بعض الولايات الصينية ، وبدأت تهدد الصين كأسلافها حتى غزا خاقان الأويغوريين (بوكوك خان) بلاد الصين ، فوصلت فتوحاته الى «لويانج» عاصمة أسرة (تانغ) الصينية عام ٧٦٢م .

ولبثت هذه الدولة رافلة في أثواب عزتها ، متمكنة في أوج قوتها ، مدى قرن من الزمان (٧٤٠ - ٨٤٠ م) ، ثم انهزمت

أمام قبيلة تركية أخرى وهى : قيرغز ، وعلى أثر ذلك اضطرت الى ترك منغوليا ، وانحصرت دولتها فى تركستان الشرقية ، ومقاطعة «قانصو» فى الصين ، واتخذت «قاراخوچا» فى طرفان ، عاصمة جديدة للدولة ، حيث خلفت هناك تلك الحضارة الباهرة ، التى تدهش الناظرين ، وتحير الألباب .

كانت تركستان الشرقية منذ أقدم أجيال التاريخ موطناً للاتراك ، ومهداً لحضارتهم ، وقد سمى العرب سكانها الاتراك ، قبل مهاجرة الأويغوريين اليها ، باسم تغزغز (توقوزاوغوز) ، وسمو الأويغوريين كذلك بعد هجرتهم اليها بهذا الاسم لعدم علمهم بهذه المهاجرة الجديدة .

(والذين هاجروا من تركستان الى الصين ، من قبائل تغزغز بعد مجىء ، الأويغوريين أقاموا فى «هونان ، ثلاثة بيوت ، حاكمة ، الأول بيت ، «تاغ» المتأخر فى الزمن ، وقد حكم من عام ٩٢٣ الى ٩٣٦م ، والثانى ، بيت «تسين» المتأخر أيضا ، وقد حكم من عام ٩٣٦ الى ٩٤٧م والثالث بيت «هان» المتأخر كذلك ، وقد حكم من عام ٩٤٧ الى عام ٩٥١م) .

لقد تقدمت حضارة تركستان الشرقية بعد تأسس الدولة الأويغورية هناك تقدماً باهراً ، وقد أثبتت هذه الحقيقة الوثائق التاريخية ، والآثار المدنية ، التى عثرت عليها البعثات

الأوروبية ، فى الحفريات التى اكتشفت هناك ، منذ أوائل القرن العشرين ، وهذه الحفريات التى أجريت فى عاصمة الأويغوريين (خوچو) أو (ايديقوت) ، كانت لها نتائج باهرة تدل على أخذهم بأعظم أسباب المدنية والعمران ، وتقدمهم فى مدارج العظمة والرقى .

يقول أحد المستشرقين الألمان بعد ما شاهد هذه الآثار الفنية ، التى نقل بعضها الى المتاحف الأوروبية ، وبعضها الآخر فى مواطنها الأصلية : «يحق للاتراك أن يفاخروا بأجدادهم الذين خلفوا هذه المدنية الزاهرة ، فى وقت لم يكن بانجلترا وفرنسا وألمانيا شىء منها» .

دولة كارلق

— : o : —

حلت قبائل قارلق محل تركش ، ودولة الترك الغربية ، فكانت فى الأول تسكن فى الشمال الغربى من (أورومجى) و (كوچن) و (غربى آلتاى) . فلما بدأ الانقسام بين أجزاء امبراطورية الترك العظمى ، استولت عليها الصين ، فأصبحت احدى الولايات الصينية ، وهاجر أهلها الى الجنوب ، واتفقوا مع الأويغوريين ، وباسمل ، وقضوا على دولة الترك الشرقية سنة ٧٤٥م ، وكان الساكنون منهم فى جبال "أوتوكن" تابعين للاويغوريين . والذين فى آلتاى وبشبالق : تابعين للصين ، واشتركوا معها فى بعض الحروب . . . وفى المعركة الدامية التى وقعت بين قائد المسلمين (زياد بن صالح) ، وقائد الصين (كاو - شين - چه) على نهر تاراس ، انضم هؤلاء الاتراك (قارلوق) الى المسلمين ، حينما رأوا اخوانهم الاتراك فى صفوف المسلمين العرب وكان انضمامهم الى المسلمين سببا فعالا فى كسب الحرب ، وبلغ المسلمون بمساعدتهم الانتصار الباهر الذى غير مجرى التاريخ . وأبعد الصين عن تركستان جملة ثم بدأ أتراك (قارلق) يلعبون دوراً هاماً فى ميدان السياسة ، فزادت قوتهم - حتى حاربوا الأويغوريين للاستيلاء على تلك المناطق ، (٧٥٦ - ٧٥٧) . واستفادوا ايضا من نزاع قبائل تركش .

وأسسوا دولتهم فى بلاد الترك الغربية ، وأصبحت خلفا لتركش سنة ٧٦٦م ، ثم حاولوا صد هجمات المسلمين على ماوراء النهر بما أمكنهم من جهود ، حتى استولوا مرة على فرغانة ، فى عهد الخليفة (هارون الرشيد) غير أنهم اضطروا أخيراً الى ترك فرغانة . وفى سنة ٨٠٦م تحالفوا مع الاويغوريين والتبتيين ضد الدولة العباسية . ولكن المأمون الذى كان واليا فى خراسان استصواب سياسية مجاملة الاتراك وارضائهم .

فلهذا عقد منهم معاهدة صداقة وتحالف ، ومن ثم بدأ الاسلام ينتشر بينهم ، ويغزو قلوبهم وكان ذلك مقدمة صالحة ترشحهم للقيام بدورهم فى انشاء الدولة الخاقانية الأسلامية فى تركستان الشرقية فيما بعد .

الاسلام و تركستان

شاء الله يكون من نصيب تركستان اشراق نورالاسلام فى أرجائها ، وسطوع ضوء الايمان تحت سمائها ، ووصول عبير القرآن الى أبنائها ، لتكون ركناً فى صرح التاريخ الاسلامى متصلا ببنائها ، وذلك فضل من الله عليها ، ونعمة منه واصلة اليها ، استمرت على تعاقب اجيالها ، وتوالى الايام فى بكورها وآصالها حتى قامت هذه الامة بواجبها نحو الرسالة السماوية العلياء والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فبعد موقعة «نهاوند» التى عرفت فى تاريخ الاسلام بفتح الفتوح ، استولى العرب المسلمون على بلاد ايران كلها سنة ٦٤٢م ، وهرب يزدجرد آخر الاكاسرة الساسانية الى تركستان ، والتجأ الى الاتراك ، وأقام فى مرو .

فتعقبه المسلمون ، حتى وصلوا الى حدود تركستان ، والتقوا بالاتراك لاول مرة ، وعلى أثر ذلك أصبحت فارس وممتلكاتها ضمن الدولة الاسلامية ، وبنى المسلمون البصرة على خليج العجم ، وبنوا الكوفة على الشاطىء الغربى لنهر الفرات ، وأصبحت الكوفة مقر الحكومة بدل المدائن ، واعتنق الفرس

الاسلام ، واختلطوا بالعرب وصاهروهم ، وأصبحـوا عنصرا إسلامياً هاماً .

وأصبحت الامبراطورية التركية التى كانت حينئذ من الدول الاربعة الكبرى فى العالم على حافة الانقراض — وفعلا انقرضت الامبراطورية فى تلك السنة نفسها (سنة ٦٤٥م) وتأسست عدة امارات ودويلات تنازعت فيما بينها ، ودمرت قواتها القومية بالنزاع والشقاق .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الصين تهدد الاتراك ، وتطمع فى الاستيلاء على تركستان ، ولكن المسلمين العرب بعد ما فتحوا ايران ، نشروا الاسلام فيها ، وعظم شأنهم ، ثم بدأت عوامل الغزو بين المسلمين ، وأتراك تركستان .

وفى عهد الخليفة «عثمان بن عفان» رضى الله عنه ، استولى المسلمون على بلاد خراسان التى كان أكثر سكانها أتراكا ، واستقروا فيها ، وبدأوا يتقدمون صوب الشرق ، واستولوا على مدينتى (بلخ و هرات) ، ووصلوا الى نهر «جيحون» ، وفى عهد معاوية صارت خراسان قاعدة حربية للتقدم الى داخل تركستان ، وأسكن فيها قدر خمسين ألفاً من مهاجرى العرب من الكوفة والبصرة ، واستعدوا للحرب الى أن تتاح الفرصة ، وكان من

حسن حظ المسلمين أن بدأت الحرب بين ملوك تركستان وأمرائها ، واستفاد المسلمون من ذلك ، فاتجهوا الى طخارستان وماوراء النهر ، واستمرت الحرب من ذلك الحين الى عهد الخليفة عبد الملك ، فلما تربع على عرش الخلافة اهتم بفتح تركستان ، لكنه لم ينجح فى أول الامر وثبت الاتراك على الدفاع عن بلادهم ، والزود عن كيانهم ، حتى أخرجوا المسلمين الذين عبروا نهر جيحون مرة الى غربها .

وحينما عين الخليفة عبدالملك الحجاج بن يوسف الثقفى فى ولاية خراسان ، بدأت الحرب بين الترك والمسلمين على أشدها ، وأرسل الحجاج قواده المشهورين لفتح تركستان ، ولما رأى عدم نجاحهم ، ولى الحجاج البطل الاسلامى (قتيبة ابن مسلم الباهلى) على خراسان سنة (٨٦هـ) .

فلما وصل قتيبة اليها استعرض جيوشها . ونظم شئونها ، ثم شمر للجهاد على رأس جيش جرار ، بعد أن جعل على المهمات الحربية بمرو «اياس ابن عبد الله بن عمرو» ، من أشهر القواد ، وجعل على الخراج (عثمان بن السعدى وسار هو يعبر النهر الى داخل تركستان ، فتسامع ملوك تلك الاقطار بهذه الحركة ، فمنهم من أدرك أن لاقبل له بقتال المسلمين ، فأضمر التسليم ، ومنهم من اعتزم المقاومة ، والاستبسال .

وبذلك بدأت الحرب على أشدها ، ونجح المسلمون فى هذه الحروب الطاحنة الدامية التى استمرت نحو اثنتى عشرة سنة متوالية ، ورسخت قواعد الاسلام بعد ذلك ، حتى امتد النفوذ الاسلامى الى «كاشغر» فى تركستان الشرقية ، ثم بدأ المسلمون ينشرون الاسلام بين ربوعها بجد و نشاط .

رأى التركستان أنهم أمام دين جديد ، قوامه التعاون والتعاطف ، والتراحم ، واقامة شريعة الله على السواء بين الجميع ، لا يرتفع كبير على صغير . ولا يستطيل غنى على فقير ولا فضل لعربى على عجمى ، وتبين لهم أن هؤلاء الغزاة لم يتقدموا للاغتنام والغلب ، واحراز كنوز الفضة والذهب ، والتعالى والاستكبار فى الارض ، وانما جاءوا لنشر رسالة التوحيد ، ورد مخلوقات الله الى الله ، واقامة العدل بالقسطاس المستقيم بين الغالب والمغلوب .

ان التركى اذا آمن بعقيدة ، أو تبين له صوابها ، لم يتردد لحظة واحدة فى الايمان بها ، والدفاع عنها ، لذلك نرى بعد تلك المقاومة العنيفة اقبالا على الاسلام وتعلقاً بأهداب القرآن ، ومن المعقول فى الامم أن لا تقبل الديانات الجديدة بمجرد رؤية بعض أهلها ! ولابد فى أول الامر من أن تثور الغيرة والحمية ، وتنشط النفوس الى الدفاع والمقاومة . فاذا تبين الرشد

من الغى أمكن لنا أن نضع فى الميزان ، مقدار عقلية الأمة ، وتقديرها للحقائق . واتراك تركستان ما كادوا يتبينون حقيقة الاسلام حتى أقبلوا اليه طائعين ، ومدوا أيديهم اليه مختارين ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً ، وأقبلوا على الاسلام زرافات ووحدانا ، بعد أن درسوا الكتب الدينية ، وتعمقوا فى البحث عن الاسلام ، ودلائله الواضحة ، وحججه القاطعة ، وجواهر حكمه ، وبدائع مواعظه ، وجوامع كلمه ، وأيقنوا أن فى هذا الدين تنظيم أمورهم ، واصلاح نفوسهم ، ورقى شعوبهم ، وأنه دين العقل ، ودين الفطرة ، ودين المروءة ، ودين المساواة ، ودين السعادة ، وتاج الاديان .

ولقد نال هؤلاء الاتراك الحظوة الخطيرة فى عهد العباسين ، واشتغلوا بترقية شئون الدولة ، وسد نفوذها ، فأصبح المرجع اليهم فى كل الامور ، حتى صار أغلبية الوزراء والوكلاء ، وقواد الجيوش من أبناء تركستان .

وكان الخلفاء يحبون الاتراك حباً جما ، ويقدرونهم جداً ، ومدحهم كثير من الشعراء والعلماء وأثنوا عليهم ، وكتب بعضهم رسائل مستقلة فى مناقب الاتراك وفضائلهم .

قال أبو اسحاق :

« وفتية من كماة الترك ما تركت

للرعد كبّاتهم صوتا ولا صيتا »

« قوم اذا قوبلوا كانوا ملائكة
حسنا ، وان قوتلوا صاروا عفاريتا »

وقال ابن الرومى :

« اذا ثبتوا فسدّ من حديد
تخال عيوننا فيه بحار »

« وان برزوا فنيران تلظى
على الاعداء يضرمها استعار » !

لما أصبح للاتراك الحكم المطلق فى بغداد كانوا يتولون أيضا كثيرا من البلاد والولايات ، واستقل بعضهم حين بدأ الانقسام والضعف فى الدولة العباسية كالدولة السامانية فى تركستان ، والدولة الطولونية ، والاخشيدية فى مصر والشام - فلما رأى غير المسلمين من الاتراك نجاح مواطنيهم من أبناء جلدتهم ، نهضوا من رقدتهم ، واستيقظوا من سباتهم وبدأوا يدخلون فى دين الله أفواجا ، بمحض اختيارهم .



جهود الاتراك فى نشر الاسلام

استطاعت الدولة السامانية التى تأسست فى المقاطعات الغربية من تركستان الكبرى ، والدولة الخاقانية التى ظهرت فى شرقها - أن تعمل كل منهما على انتشار الاسلام بين من لم يسلموا من الاتراك ، فدخلوا فى دين الله زرافات ووجداناً وانتشر الاسلام فى القرن العاشر الميلادى ، فيما وراء سيحون وكاشغر ، وبدأ انتشاره بين قبائل أو غوز ، وقارلق : من قبائل الاتراك فأسلم فى سنة (١٠٤٨) . م - (٣٥٠) . ه مائتا الف أسرة فى يوم واحد بين (تاشكند) و (فاراب) ، واذا فرضنا أن كل أسرة مؤلفة من خمس أنفس ، فعدد الذين أسلموا فى هذه المرة نحو مليون نفس ، وكذلك أسلم سنة ٤٣٥ه عشرة آلاف أسرة من أهل (بالاساغون) و(كاشغر) ، دفعة واحدة باحتفال مهيب ، ضحوا فيه عشرين الف رأس غنم .

وتأسيس الدولة الخاقانية فى تركستان الشركية ، ثم فى غربها أيضاً ، والدولة الغزنوية فى جنوب تركستان ، وأفغانستان والهند الشمالية ، أنتج دخولهم فى الاسلام بعضهم وراء بعض .

بعد أن بدأ الانقسام فى الدولة العباسية ، أسس الأتراك فى مصر والشام : الدولة الطولونية ، ثم الاخشيدية - وفى تركستان نفسها الدولة السامانية ، وفى شرقها الدولة الخاقانية وفى جنوبها وبلاد الأفغان والهند : الدولة الغزنوية ، ثم اتحد تحت الراية السلجوقية الكبرى كل البلاد التى كانت تحكمها الدولة العباسية -

عدا مصر والهند ـ وفضلا عن ذلك ضمت بلاد الأناضول الى الدولة ، وعلى أثر انقسامها تأست عدة دويلات تركية فى البلاد التى حكمها السلاجقة ، فى ايران ، والعراق ، وسوريا ، والأناضول ، وغيرها . . .

وعاش فى ظل الاسلام : الدولة الخوارزمشاهية ، ثم الدولة التيمورية الكبرى ، وبقية الامارات التى تأسست فى تركستان بعد انقسامها ، وخدمت الاسلام حتى لم يبق فرد من الأتراك فى تركستان يتدين بغير الاسلام .

ولما كان الأتراك قبل الاسلام أمة عظيمة القدر قديمة المدنية ، ذات مجد وسلطان ، كان من الطبيعى أن يخدموا الاسلام بعد أن آمنوا ، وما كاد الأتراك فى تركستان يعتنقون شريعة التوحيد ، وتتغلغل أصولها فى المشاعر والألباب حتى نهضوا ينشرون الدعوة ، وأقاموا من أنفسهم غزاة فاتحين ، ودعاة مخلصين يعملون على اعلاء كلمة الاسلام ما وسعهم الجهاد ، واتسعت لهم رقعة الأرض .

والتركستانيون انما خلقوا للجهاد : فاذا جاء دين الجهاد ، فقد وجدوا أعز أمنية على أنفسهم ، وأقرب غاية الى أرواحهم الطامحة وعزائمهم الجياشة ، لقد تأثرت قلوبهم بالاسلام ، فألفوا ، ودونوا وكانوا مسلمين ، نية ، وقولا ، وعملا .

لم يكتفوا بالمراسيم والألفاظ ، ولم يقفوا عند حدود المظاهر والألوان ، بل أشربت قلوبهم معارف القرآن ، وامتزجت أرواحهم بفقه السنة وأنوار السيرة المحمدية المطهرة ، وجعلوا أداء الشعائر ، واقامة حدود الله نصب أعينهم ، وقبلة آمالهم ، ثم دفعتهم الغيرة الى أن يقوموا بالدعوة والارشاد ، فساهموا بنصيب موفور فى هذا الواجب ، وفقاً لقوله تعالى :

«ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير» لم يكن ذلك فى بلادهم وحدها بل فى كل ما جاورهم من الممالك ، والأقطار ، فأرسلوا دعاة الاسلام الى بلاد التبت ، فاسلم كثير من سكانها بغير تردد ، ثم نشروا الشريعة الاسلامية فى بلاد اخوانهم المغول الذين يسكنون هضاب (مغولستان) ، «منغوليا» وذهب التركستانيون أيضا الى المدن الصينية المجاورة للتركستان الشرقية ، ونشروا الدعوة الاسلامية فيها ، فأسلم عدد كبير من الصينيين ، فلذلك نرى أن أكثر المواطن الصينية احتشاداً بالمسلمين ، هى المواطن التى تتاخم بلاد تركستان .

ويكفى كذلك أن نذكر اللفظ الذى يدل على المسلم ويعبر عن معناه فى اللغة الصينية ، فكلمة (خوى ـ خوى) ، هى التى تعنى المسلم ، وهى محرفة باعتراف الصينيين عن كلمة (أو يغور) . التى هى أشهر قبيلة تركية ، تكون أكبر عدد فى تركستان الشرقية .

لم تنحصر جهود المسلمين الأتراك فى هذا الميدان وحده ولكنهم رفعوا لواء الاسلام عالياً عند اخوانهم من اتراك (البلغار) : وسواحل نهر فلجا (أثيل) ، وساروا بدعوتهم القوية فى كل ما أمكنهم الوصول اليه من البلاد الشمالية ، وما زالت تلك جهودهم تمضى بهم قدماً فى سبيل الله حتى شرق أوربا .

ومن تتبع تاريخ نشر الاسلام فى «بولندا» ، و «فنلندا» ، و «استونيا» ، وسائر الممالك البلطيقية وغيرها تعرف مبلغ المجهودات الباهرة التى كان يبذلها أولئك المؤمنون الصادقون من أبناء تركستان ، الذين جعلوا نشر الدين فى أول الواجبات ، وفى مقدمات الأعمال الخالدة التى بذلوها .

وان أنس لا أنسى فتوحات السلطان «محمود الغزنوى» للهند ، وكان هناك الشأن الأول ، والمقام الأعلى للوثنية ، والديانات الهندوكية ، فلما كتب الفوز لهذا السلطان التركى المسلم ، صدع بأمر الله فى جهاد الكفر والكافرين ، وحطم الأصنام فى معاقلها الحصينة ، ونشر دين التوحيد فى ربوع الهند ، وغرس الغرس المبارك الطيب الذى حق له من بعد أن ينمو ويزداد ، على توالى الأجيال والعصور . . . . . . ولم يكد الاسلام بكتابه وسنته يسكن بلاد تركستان ، وتنبثق أشعته الالهية فى قلوب أبنائها حتى أقبلوا على الدرس والتحصيل ،

واندفعوا للبحث والاستقصاء ، وأقاموا من أنفسهم قادة ، وحملة للواء العلم ، والثقافة فيها . ولعل المطلعين على أبسط مراجع التاريخ ، يعلمون قيمة الجهود التى بذلها الأتراك فى خدمة الاسلام ، وكيف كانت لهم القدم الراسخة فى جيش الجهاد فى سبيل الله ، ومحاربة الوثنية ، والصليبية ، وحماية هذا الملك العظيم ضد أعدائه من الشرق والغرب .



تركستان مدرسة العلماء

ما أكثر ما يشغلنا التاريخ السياسى والحربى ، وانقلاب الدول ، وتغيير الممالك عن تاريخ العلم وتطوراته ، فكثير من الناس يحفظون عن الترك أسماء أبطالهم وقوادهم ، الذين غامروا فى الميادين ، ودافعوا عن حوزة الدين ، ويعرفون فضل السلاجقة ، والأتابكين ، والسامانيين ، والخاقانيين ، والغزنويين ، والطولونيين ، والاخشيديين ، والتيموريين ، والتوغلوقيين ، والبابريين ، والمماليك ، والعثمانيين ، . ، . .

وما كان لملوك هذه الأسر من الفضل فى دفع الحروب الوثنية ، والصليبية ، وحماية بلاد الشرق والاسلام . وهنا يقف المعجبون بأبطال التاريخ الحربيين ، فلا يذكرون العلماء بشىء ، وينسبون أن أولئك الأبطال ما كان لهم أن ينهضوا بأعبائهم الفادحة ، ويناضلوا عن حوزة الاسلام ـ لولا أن قلوبهم ارتوت من سلسبيل تلك المعارف والعلوم ، التى نشرها المحدثون والمفسرون ، والحكماء والمتكلمون ، وغيرهم .

وانى لو حاولت أن أحصى عدد العلماء الذين نبغوا من تركستان ، لاحتجت الى مطولات ضافية ، ولكنى أقصد الى

التذكير والالماع الموجز ، فليس من سبيل الى احصاء أولئك الأساطين من حكماء وعلماء ، لم يكونوا لتركستان وحدها ، بل كانوا للعالم كله ، وبخاصة الاسلام . وما برحت أسماؤهم أنشودة عذبة لكل من يتغنى بمفاخر الاسلام ، وعظمة الأولى ، فمنذ القرن العباسى الى وقت غير بعيد منا كان تيار العلم متدفقا من بخارى ، وسمرقند ، وخوارزم ، والشاش ، وكاشغر ، وبلخ . ـ حتى القرى المجهولة فى تركستان قد نبهت أسماؤها حين نبغ علماؤها ، وقد ظهر منهم أئمة رفعوا لواء الاسلام عالياً وبنوا له مجدا باذخاً ، كالامام الحافظ الحجة أميرالمؤمنين فى الحديث ، فى القديم والحديث ، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى ، وكذا الامام الترمذى ، والنسائى ، وصاحب الكشاف العلامة جار الله الزمخشرى ، وصاحب المفتاح يوسف السكاكى ، والشيخ عبد القاهر الجرجانى ، والعلامة سعد الدين التفتازانى ، والعلامة السيد الشريف الجرجانى .

وكذا الفقية الشيخ شمس الائمة السرخسى صاحب المبسوط ، والشيخ سديد الدين الكاشغرى ، وصاحب الهداية : على بن أبى بكر المرغينانى ، والعلامة صدرالشريعة وتاج الشريعة وبرهان الشريعة وصدر الأفاضل ومفسر القرآن : أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفى ، وإمام أهل السنة أبو منصور الماتريدى ،

والكاتب الأديب أبو بكر الخوارزمى . والأديب المعروف بالشطرنجى الصولى ، و محمود الكاشغرى .

وكذلك كل من يدعى منهم بالشاشى ، والسمرقندى ، والنسفى ، والكاشغرى ، والختنى ، والخوارزمى ، والترمذى ، والبلخى ، والأوزجندى ، والخجندى ، والفارابى ، والمرغينانى ، والبخارى ، . ، . ، الخ فكلهم من تركستان .

« * »

كذلك المعلم الثانى الحكيم الكبير ، أبو نصر الفارابى ، والشيخ الرئيس : (على بن سينا) ، وخالد بن عبد الملك ، المتخصص الكبير فى مرصد المأمون ، وأبو زيد البلخى (أول من كتب الجغرافيا على طريقة قدماء اليونان) وبنو موسى بن شاكر : (محمد وأحمد والحسن) أشهر رياضى العهد العباسى ، وأوائل المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة ، والذين حققوا للمأمون مقدار الدرجة الأرضية ، وصححوه ، وهم الذين اخترعوا علم الجبر والمقابلة وأذاعوا الحساب الهندى بين المسلمين ، وابتكروا كذلك زيجاً جامعا على أصول الهند واليونان .

ثم أبو ريحان البيرونى الذى علم المسلمين فلسفة الهند ، وعلومها ، والجوهرى الذى أهدى إلى الأمة العربية ، أحسن

القواميس اللغوية العربية وأكملها .

وغيرهم من فطاحل الفضلاء الذين لا يدخلون تحت حصر وحد ، إلا فى مجلدات عديدة ، وأسفار ضخمة ــ كانوا من صميم أبناء تركستان .

علماء الاسلام كانوا بدورا
وسماء البدور تركستان
إن أردت الدنيا ترى المجد فيها
قد أقيمت لصرحه أركان
أو أردت الدين الحنيف تجدها
وهى للبر والهدى عنوان
وطن المصلحين ديناً ، ودنيا
تتغنى بفضلها الأزمان

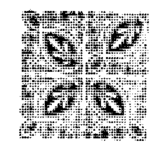
هكذا نشطت هذه الأمة للعلم ، وأخذت ترتشف رحيق هذا الدين تفسيراً ، وحديثاً ، وسيرة ، وتاريخاً ، وضربت فى الفقه الاسلامى بسهم قوى .

ولا غرو ، فما كانت تركستان تجد لنفسها فى ذلك العهد

شخصية غير الشخصية الاسلامية ، المؤلفة من الناطقين بالضاد أو بغير الضاد ، فهى جزء من ذلك الكل ، وعضو فى ذلك الجسم ، وشجرة من هذا البستان الكبير ، فساهمت بعلمائها ، ومحدثيها ، وفلاسفتها .

« * »

لم يكن الجهاد فى الدراسة والتحصيل ، محصوراً على طبقة من الناس ، بل كان ملوك تركستان قبل رعاياهم فى حلقات هذه الدروس يستمعون الى العلماء ويستفيدون منهم ، وقد جعلوا هؤلاء العلماء صدور مجالسهم ، ووزراء دولتهم ، وقضاة حكومتهم ، وولاة أقاليمهم ، وكانوا يكافئونهم ، بالجوائز السنية ، والمراتب الرفيعة ، ويعظمون قدرهم ، ويرفعون شأنهم ، وينتظمون فى حلقات دروسهم ، ويبنون لهم المدارس ، وينشئون لهم المراصد ويشيدون لهم دور الكتب .



دولهم فى الاسلام

—— : o : ——

كانت جهود الاتراك كلها أدلة ناطقة على أن مجدهم فى الاسلام قام على دعائم ثابتة من مجدهم الراسخ ، وبرهاناً على أن سجاياهم الفطرية فى معترك الجهاد قدانبعث فى ظل الاسلام وازدادت نوراً واشراقاً . واذا كان هذا الحديث المجمل صورة مصغرة من خدماتهم العلمية والدينية ، فقد كان لهم فى أفق السياسة وفى أنظمة الحكم ، واقامة الدول مدنيات أقتبست من الاسلام نوراً جديداً : بل اضافت الى قاموس الحضارات العالمية كلها مجداً لا يمر عليه التاريخ إلا بالثناء والاعجاب .

والدولة الأولى من الترك بعد الاسلام فى تركستان ، هى الدولة السامانية .

الدولة السامانية :

كان «سامان ياوغى» الذى تنسب اليه هذه الدولة ، من قبائل أوغوز التركية ، ومن رهبان معبد «نوبهار» البوذى فى بلخ ، وقد استعان طاهر بن الحسين بأسد بن سامان فى بعض أعماله ، وكان له أربعة أولاد ، هم : نوح ، وأحمد ، ويحيى ، والياس ، نشأوا نشأة حسنة ، وارتفع شأنهم عند المامون ، حينما

كان عاملا لأبيه على خراسان ، فلما أفضت اليه الخلافة ولى نوحاً بن أسد (سمرقند) ، وأخاه احمد (فرغانة) ، ويحيى «الشاش» (تاشكند) ، وأشرسنه (أوراته) أما الياس فولاه «هرات» .

ولما توفى نوح بن أسد ، أضيف عمله الى اخوته ، ثم توفى أحمد فقام بالأمر بعده ابنه نصر على «سمرقند» ، ثم من بعده اسماعيل بن احمد ، وهو مؤسس هذه الدولة ، وهى تعتبر أول دولة اسلامية تأسست فى تركستان منذ ظهور الاسلام ، وقد توالى على الملك فيها تسعة ملوك — أولهم :

اسماعيل بن احمد (٢٨٧ - ٢٩٥م) ، وآخرهم عبد الملك الثانى . وكان ملوكها مخلصين فى طاعة الخلفاء العباسيين ، يحاربون الخارجين عليهم . . فقضوا على الصفاريين ، وحاربوا العلويين فى طبرستان ، وظلت ممتلكاتهم تحت سيادة السامانيين .

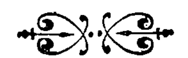
ولا نعرف على وجه التحقيق الى أى حد امتد سلطان الدولة السامانية فى افغانستان وقيل فى «مجمل فصيحى» ان اسماعيل السامانى حكم بعض نواحى الهند ، ولعله كانت له بعض السيادة على ملوك «أوهند» من الهندوس .

كان لهذه الدولة أثر حسن فى تاريخ الآداب الفارسية ،

وفى عهدها و رعايتها انبعث الأدب الفارسى الاسلامى ، واشتهرت تلك الدولة بالعدل والاصلاح ، وقد بلغت أعلى منزلة ، وأرفع مكانة وأسمى درجة فى الحضارة والرقى والغنى والثروة ، وازدهرت العلوم والمعارف ، وتأسست فى كافة أنحاء تركستان جمعيات علمية لتعميم العلم ونشره بين جميع الأهلين على اختلاف طبقاتهم ، حتى أصبحت تركستان اذ ذاك كعبة للعلم والعرفان ، تؤمها الأمم من كل حدب وصوب ، فنشأ عدد غير قليل من العلماء والحكماء والمحدثين .

وكذلك ارتقت التجارة والزراعة ، وتقدمت الفنون والصناعة ، حتى اشتهرت فى جميع الآفاق منتجاتها الصناعية ، ومنسوجاتها الحريرية ، ومصنوعاتها الحديدية . . . . وصارت التجارة سببا قويا فى انتشار الاسلام بين قبائل الاتراك انتشارا مدهشا فى ذلك العصر .

ولما كانت الدولة السامانية تسير الى العظمة والمجد ، تأسست فى شرقها دولة اسلامية تركية أخرى ، وهى الدولة الخاقانية ، وفى جنوبها الدولة الغزنوية ، واقتسمتا فيما بينهما السلطان والدولة .



الدولة الخاقانية

لانجد من مصادر التاريخ من يتكلم منها على تأسيس الدولة الخاقانية الا القليل النادر ، ولكننا نعلم أن أول من أسسها وأسلم ، هو السلطان «ستوق بغرا خان» . وقد دانت لهذه الدولة كل البلاد التى تقع شمالى جبال تيانشان ، وجنوبها — أى التركستان الشرقية كلها .

وتعرف هذه الدولة فى بعض كتب التاريخ باسم «دولة آل افراسياب» ودولة خانات تركستان ، أو الدولة الخاقانية ، كما أطلقنا هنا ، أو الخانية أوالقراخانية ـ وذكرها المؤرخ التركى الدكتور (رضا نور) ، بعنوان الدولة الاويغورية ، وأطلق محمود الكاشغرى عليها الدولة الخاقانية ، وسماها الاوربيون بالدولة الايليكخانية ، استنادا الى المسكوكات والمخلفات .

ان لهذه الدولة اهمية عظيمة فى انتشار الاسلام بين الاتراك ، وقد عمل السلطان ستوق بغرا خان على نشر الاسلام فى جميع أنحاء البلاد ، وبسط نفوذه على جميع القبائل التركية فى وادى «سيجون» وبدأ بتهديد الدولة السامانية ، وفعلا استولى السلطان «ايليكخان ناصر» على ماوراء النهر ، ثم حارب السلطان محمود الغزنوى لسلخ خراسان منه ، ولكن الحرب تمت بالصلح .

ولقد كانت الدولة ذات صبغة تركية محضة فى كل أمورها وشئونها ، وقد صنفت كتب كثيرة باللغة التركية فى ذلك العصر الزاهر ، فمنها كتاب (قودا تقوبليك) الذى كتبه يوسف خاص حاجب (١٠٦٩ - ١٠٧٠) وأهداه الى السلطان أبى على حسن تابغاج بغرا قارا خان ، وتحتوى على أكثر من ٦٥٠٠ بيت ، ولهذا الكتاب قيمة فلسفية واجتماعية ، فضلا عن كونها أدبية — بل هى أدب الفلسفية ، ونظرية الدولة — ولقد ترجم القرآن أول مرة الى اللغة التركية فى ذلك العصر .

لم تستمر الدولة الخاقانية طويلا — على عظمتها الكبرى — بسبب النزاع الداخلى بين أمراء المملكة الذين يؤلفون الهيئة الحاكمة فى الدولة — إلا أن السلطان يوسف قادر خان (١٠١٤ - ١٠٢٠) استطاع أن يوحد كلمتهم ، ولكن سرعان ما بدأ الانقسام بعد وفاته . .

فاستطاع الغزنويون أن يستغلوا هذا النزاع ، الذى استغله أيضا سلاطين السلاجقة ، وقد تمكن الخاقان ملكشاه وابنه سنجر من بسط نفوذها على سمرقند ، وكاشغر . وانتقل هذا النفوذ بعد موقعة ١١٤١م الى قراختاى التركى الوثنى .



الدولة الغزنوية

أما الدولة الغزنوية فقد أسسها ألب تكين ، وذلك أنه كان حاجبا للملك الساماني عبدالملك ، واستطاع بمنصبه هذا أن يظهر بمظهر الحاكم الحقيقي للبلاد ، واستوزر أبو على البلعمى بفضل نفوذه ، وكان لذلك لا يصدر أمراً من غير علمه ومشورته .

ولما أرادالملك إبعاد «البتكين» عن العاصمة لم يجد وسيلة تحقق غرضه إلا تقليده أكبر منصب حربى فى البلاد ، وهو ولاية خراسان (٩٦١م ، ٣٤٩هـ) .

وقام بصرنه منصور بن نوح ــ وكان ألب تكين لم يرض عن ولايته لعرش تركستان ، فرجع إلى بلخ (٩٦٢م ، ٣٥١هـ) وهزم جيشا أنفذه اليه منصور ، ثم سار الى غزنة ، وقضى على أسرتها الحاكمة ، وشيد لنفسه دولة تركية جديدة ، فلما مات خلفه ابنه أبو اسحاق ابراهيم الذى لم يستطع الاحتفاظ بسلطانه الا بمعونة السامانيين ، بالرغم من الفتنة التى قام بها صاحب غزنة السابق . . وهكذا أصبحت الدولة الغزنوية امارة تابعة للسامانيين . ولما مات أبو اسحق اتفق الاتراك على تولية بلكه تكين ، وبعد وفاته قبض سبكتكين على زمام السلطة ، وأصبح

هو المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية . كما أصبح حاكما قويا فى افغانستان كلها ، وهاجم «جيپال» ملك «أوهند» الهندى ، ثم ولاه على خراسان مولاه نوح السامانى .

كانت الدولة السامانية آخذة فى الانحلال إذ ذاك ، بينما كان سلاطين الغزنويين يزدادون قوة — ولما توفى سبكتكين (٩٠٧) بعد عشرين سنة من ولايته تاركا لأبنائه ملكا عظيما ، تنازع الملك من بعده إبناه اسماعيل ومحمود ، فأديل لمحمود ، وهو أعظم ملوك هذه الدولة ، ومن أكبر أباطرة الاتراك ومفاخر الاسلام ، ومن أسمى عباقرة تركستان .

قضى هذا العاهل على الدولة السامانية ، استولى على خراسان ، وعراق العجم وخوارزم ، وانتزع ماوراء النهر من الخاقانيين . وأغار على الهند سبع عشرة مرة وانتصر فى جميعها انتصارا باهرا ، وفاز فوزاً مبينا .

وبذلك انضمت الهند الشمالية الى دولة الترك ، ورفرف علم تركستان على سماء الهند لأول مرة فى الاسلام ، ولقد حاز السلطان محمود شهرة كبيرة فى بلاد الشرق بين الأمم الاسلامية ، ولما اتسعت فتوحاته ، وثقلت أعباؤه أخذت تهرع اليه وفود المسلمين المتطوعين من كافة البلاد الاسلامية رغبة

فى القتال معه ، وحباً فى الشهادة ، لما كان لحروبه من الصبغة الدينية ، إذ لم تكن غايته سوى تحطيم الأصنام ومحاربة الوثنية ، وإعلاء كلمة الله . . ولقد خلد السلطان محمود لنفسه فى بطون التاريخ اسما مجيداً ، حيث أحرز أول انتصار لجيش تركستان الاسلامى فى الهند ، وهو أول تركى فتح الهند فى الاسلام .

وقال بعض مؤرخى الافرنج ، ان محموداً فتح الهند كما فتحها الاسكندر إلا أن فتوحات الاسكندر ذهبت بذهابه ، أما فتوحات ابن سبكتكين فبقيت الى اليوم» .

ولم يكن السلطان محمود فاتحا غازياً عالى المكانة من الجهة العسكرية فحسب : بل كان خاقاناً عاقلا كيساً ناظما بين حاشيتى المادة والمعنى ، جامعاً بين دولتى السيف والقلم ، وملجأ يقصده رجال الفنون والأدب لتشجيعه إياهم ؛ مما عاد على شعبه بجزيل الفائدة حتى صارت عاصمته «غزنة» كعبة لمشاهير الشرق من رجال السياسة والفلسفة والشعر والعلوم الفلكية واللغات الشرقية ، ومركزاً للعلم والعرفان ، ومشرقاً لأشعة الحكمة والاداب ، واجتمع عنده كثير من أعلام الاسلام ، ونوابغ الترك كالفيلسوف الاعظم (أبى نصر الفارابى) الذى يعد مفخرة الاتراك فى كل عصر ، وأبى ريحان البيرونى ، والبيهقى المؤرخ ، وفى أيامه أيضا نبغ الكاتبان الشهيران . أبو بكر

الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، ولزم بابه العنصرى والعسجدى والفرخى ، وغيرهم من شعراء الفرس ـ كما قصده هو هيروس العجم ، الشاعر المشهور أبو القاسم الفردوسى ، صاحب (الشهنامة) الذى أثبت فيها تاريخ أبطال الفرس شعراً .

* * *

بسط محمود سلطانه على بلاد واسعة شاسعة تشتمل من ناحية الغرب على خراسان وأجزاء من العراق وطبرستان ، ومن ناحية تركستان فى الشمال على ماوراء النهر وخوارزم ، وعلى البنجاب كلها فى الشرق ، وعلى أفغانستان فى الوسط .

ولقد خلف محموداً ابنه محمد سنة ٤٢١هـ ١٠٣٠م ، ثم خلفه أخوه مسعود ، وفى عهده وجهت أول ضربة قاضية إلى الدولة الغزنوية بقيام دولة جديدة فى تركستان ، وهى الدولة السلجوقية ، وفى سنة ١٠٣٩م (٤٣١هـ) هزم طغرل بك السلجوقى مسعوداً فى معركة حامية وقعت فى دندانقان بين مرو ، وسرخس فى جنوب تركستان .

ومنذ هذه الموقعة انتزعت منه تركستان وخراسان وجميع الممتلكات الغربية ، وبقى ملكهم فى غزنة والهند فقط حتى قضت عليهم الدولة الغورية فى منتصف القرن السادس الهجرى .



الدولة السلجوقية

بدأ نجم الامبراطورية السلجوقية يسطع فى سماء تركستان ، وهى تنسب إلى سلجوق بن دقاق من بطون قنيق التى هى إحدى عشائر «أوج أوق» من قبائل أوغوز التركية ، وكان سلجوق قد هاجر من تركستان الشرقية إلى تركستان الغربية ، واستوطن مدينة جند على ساحل سيحون مع أتباعه وعشيرته ، وأشرق على قلبه نور الاسلام فأسلم ، وكانت الدولة السامانية حينئذ قد بلغت من الضعف حالة لاتقدر معها على رد هجمات الأتراك غير المسلمين الذين كانوا يغيرون على الحدود ، ويأخذون الجزية من المسلمين فى تخوم الدولة ، أما سلجوق فانه رد الجباة والعمال الذين أرسلهم الأتراك غير المسلمين إلى «جند» لأخذ الجزية وصد غارتهم بعد أن تغلب عليهم ، ومنذ ذلك اليوم أضاءت شهرته فى تلك النواحى من تركستان ، والتحقت به قبائل الأغوز ، وأذعنوا لزعامته .

كانت حالة تركستان السياسية إذ ذاك فى شغب وفوضى ، وكان من أثر تلك الحروب المتوالية بين الخاقانية ، والسامانية أن أتيحت للسلاجقة ساحة عملية تجلت فيها شجاعتهم وبراعتهم ، وقيمتهم الحربية ، واستفادوا كثيراً من مساعدتهم للسامانيين ضد الخاقانيين ، ولكنهم قبل كل شىء كانوا يفكرون فى أنفسهم ،

وينظرون ببصيرة نافذة إلى تقرير مصيرهم . .

وفى هذه الأثناء لحق سلجوق بربه ، وبقى أبناؤه الأربعة : إسرائيل ، وميكائيل ، وموسى ، ويونس . . وأصبح من بينهم إسرائيل (أرسلان) زعيمهم المبجل حاملا للقب «يابغو»[١] ، وكان تحت إمرته عدد وافر من الفرسان ذوى البأس ، وكان الأمراء المجاورون يحاولون التخلص من هؤلاء الفرسان ماداموا لم يتمكنوا من استخدامهم فى محاربة عدوهم ، ولما جاء خاقان الغزنويين السلطان محمود الغزنوى إلى ماوراء النهر عام (١٠٢٥م - ٤١٦هـ) تحالف مع قدر خان ملك الخاقانيين وبهذا التحالف بت فى أمر السلاجقة ، فقد دبر محمود الخطة اللازمة وأسر أرسلان وشتت شمل جنده الأتراك ، فهاجر الكثير منهم إلى جهات العراق ، وأذربيجان ، بقيادة بعض زعمائهم . . . على أن كثيراً منهم لم يبرحوا تركستان ، فاستقروا فى ماوراء النهر تحت إمرة طغرل بك وجغرى بك وسواهما من الأمراء المنحدرين من سلالة سلجوق ، حيث كانوا يصطافون فى نورآتا ، ويقضون الشتاء فى مراعى خوارزم ، وقاسوا الصعاب والمشقات من الغزنويين الذين أرادوا أن يقضوا عليهم ، ولكن النصر كان

---

١ - هو لقب رسمى فى البيوت المالكة التركية قديما ومعناه الامير المعظم .

حليف السلاجقة فى كل الميادين ، واخيراً خرج السلطان مسعود الغزنوى بنفسه على رأس جيش جرار ، وافر العد والعدد ، وكانت معركة دندانقان (بين مرو وسرخس فى جنوب تركستان) هى المعركة الفاصلة التى تم فيها النصر للسلاجقة على جيش يفوق جيوشهم فى أعداده وعتاده (١٠٤٠م) وتم لهم الاستيلاء على نيسابور والرى ، واهتزت أعواد المنابر باسم طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق فى خطب الجمعة والجماعات ومنذ ذلك اليوم بدأ يسطع فى سماء التاريخ نجم امبراطورية تركستانية فتية ، هى الدولة السلجوقية الكبرى . فكانت قافلة جديدة من قوافل المجد والسؤدد التى أنجبتها تركستان .

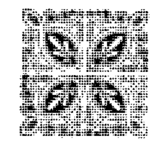
بعد أن تبوأ طغرل بك عرش تركستان بدأ يعمل على توسيع رقعة هذه المملكة ، فاستولى على جرجان وطبرستان ، وقهستان وهمذان ، وأصفهان وأذربيجان وخوزستان ، حتى وصل إلى بغداد أيام الخليفة القائم بأمر الله سنة (١٠٥٧م ٤٤٧هـ) ، فأجزل الخليفة له العطف والترحاب ، وأمر الخطباء أن يخطبوا باسمه على منابر المساجد فى حاضرة الخلافة ، وقلده الخليفة زمام السلطنة ، ولقبه بملك الشرق والغرب .

ما لبث طغرل بك بعد هذا حتى ألقى القبض على الملك الرحيم أبى نصر الديلمى آخر ملوك بنى بويه ، الذين غلبوا على

خلفاء بغداد ، وجعلوهم تحت الرقابة والحجر ، وتغلبوا بتعصبهم في مذهب الشيعة على حكم مذهب أهل السنة ، فلم يكن بدعاً أن يستقبل الخليفة طغرل بك استقبال المنقذ العظيم الذى يرد الى السنة مكانتها ، والى الخلافة جلالها وعزتها ، ثم تطورت الأحوال فى صالح طغرل بك . اذ تزوج ابنة الخليفة ، فأصبحت الخلافة والملك والنفوذ في بيت واحد وأسرة واحدة ، وبهذا الفتح المبين ، وهذه الرابطة القوية بينه وبين الخليفة أمكنه أن يمد لتركستان فى ممتلكاتها ، وأن ينشىء امبراطورية تركية تضم اليها كل بلاد الشرق التابعة للخلافة ، وبقى اسمه مسطراً بحروف أغلى من الذهب على جبين تاريخ تركستان .

توالت الأيام وتوفى طغرل بك عقيماً فى السبعين من عمره (١٠٦٣م) وقام بالأمر من بعده ابن أخيه «الب أرسلان» وقد انتهج خطة عمه فى مواصلة الفتح ، وتشييد دعائم الامبراطورية الاسلامية ، فتوجه صوب مملكة الروم واستولى على شيروان ، وكرجستان ، وتمكن من احتلال أرمينيا وهدم شوكة ملوك الأرمن الذين كانوا أذناباً لقياصرة الروم ، وضم امارات ديار بكر وحلب الى بلاده ، وبذلك وجد طريقاً ممهداً الى الأناضول فبعث طلائعه الى كل جانب حتى انتهى الى قيصرية ، ومن أعظم انتصاراته موقعة «منازكرد» التى تغلب فيها على قيصر الروم

(رومانوس ديو جينوس) ، وكان جيش تركستان فى تلك المعركه خمسة عشر الف مقاتل ، ومع ذلك انهزم الروم أمام الترك ، ووقع فيها ملكهم أسيرا ، ولكن ألب أرسلان أحسن معاملته ، وبعد قليل أطلق سراحه ، و سير معه عسكراً أوصلوه سليما الى بلده .



الدولة السلجوقية الكبرى

بهذا الفتح المبين والفوز الباهر ، رفرف علم تركستان على آسيا الصغرى ، وصارت الروم تدفع الجزية للدولة السلجوقية . ولهذا الفتح أهمية عظمى فى تاريخ العالم ، لأنه كان أعظم خطب حل بالنصرانية فى الشرق ، وانقصم به ظهر الامبراطورية البيزنطية ، ومن أثر ذلك صارت الأناضول وطناً تركياً من جديد - اذ تأسست هناك دول تركية عظيمة تدافع عن حوزة الاسلام ، وتقف فى وجه الصليبيين سداً منيعاً يرد أعداء الملة عن الوصول الى حماها والنيل من عزتها ، ومنذ ذلك اليوم الخالد وعلم الترك يرفرف على سمائها وسيظل كذلك أبد الدهر انشاء الله .

كانت وفاة ألب أرسلان فى عام (٤٦٥هـ ، ١٠٧٢م) فولى السلطنة بعده ولى عهده الخاقان الأعظم ملكشاه ، وسار على خطة أبيه فى الغزو والفتح ، وكان موفور الحظ سعيد الطالع لم يتوجه الى اقليم إلا فتحه ، ووصلت فتوحاته فى الاناضول حتى شواطئ مرمرة ، واستولى على القدس وأخذ من الروم أنطاكية ، وأورفا ، وضم الشام وحلب الى الدولة كما انضمت اليها البقية الباقية من تركستان التى كانت لاتزال بيد الخاقانيين ، وأصبحت هذه الامبراطورية التركستانية فى عهده أعظم امبراطورية فى العالم كله ، وذكر اسمه فى خطبة الجمعة من الصين الى آخر الشام ،

وسن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال الى آخر بلاد اليمن ، وحمل
اليه ملوك الروم الجزية وهم صاغرون .

فلما توفى الخاقان ملكشاه الى رحمة الله (١٠٩٢) أصبح
الملك بوفاته منقصم الظهر ، اذ بدأت عوامل الضعف تدب
فى جسم الامبراطوريه ، وأخذ الامراء يتنازعون على العرش الى
أن أعلن أخيرا الخاقان سنجرين ملكشاه نفسه خاقانا على الدولة
(١١١٨م) وأعاد الأمور الى مجراها الطبعى ، وبعد الخاقان
سنجر آخر السلاطين العظام للدولة السلجوقية إذ أنه قد استطاع
أن يجمع تحت رايته جميع البلاد الاسلامية ، وأن يعترف له
جميع الأمراء السلاجقة بأنه الخاقان الأعظم كما كان ملك شاه ،
وأخضع الغوريين ، والغزنويين ، والخاقانيين الغربيين والشرقيين
بعد انتصارات باهرة عليهم ، ولكنه لم يلبث أن انهزم أخيراً
فى معركة قطوان بجوار سمرقند (١١٤١م) أمام الأتراك غير
المسلمين الذين يقال لهم «قاراختاى» وكانوا قد أسسوا دولتهم
فى تركستان الشرقية ، وتسبب عن ذلك أنه فقد ولاية ماوراء
النهر ، وتتابعت عليه النكبات بعد ذلك حتى فاجأه الموت
عام ١١٥٨م وأصبحت وفاته سبباً لانقسام الامبراطورية
واضمحلالها ، وانفصلت تركستان التى كانت أصل الدولة ومهدها
عن بقية أجزائها إذ أعلن خوارزمشاه استقلاله التام ، وأنشأ فى

تركستان دولة جديدة تسمى بالدولة الخوارزمشاهية . . . أما الدولة السلجوقية التى بقيت منفصلة عن تركستان فلم تنته بعد من الحروب الداخلية ، وعلى أثر ذلك نشأت للسلاجقة دول فى أطراف هذه الدولة ، هى سلاجقة كرمان ، وسلاجقة الروم ، أو «سلاجقة الأناضول» ، ولم يعش من بينها جميعاً غير دولة سلاجقة الأناضولى التى مهدت لظهور الدولة العثمانية التركية فيما بعد ثم لم تلبث الايام أن أظهرت عدة دويلات تركية أخرى . كلها من البيوت السلجوقية ، تأسست على أنقاضها ، وتعرف بالدول الأتابكية ، وأهمها : الدولة الأرتقية ، وأتابكة دمشق ، وأتابكة الموصل ، وأتابكة سوريا ، وأتابكة سنجار ، وأتابكة الجزيرة ، وأتابكة أربل ، وأتابكة أذربيجان ، وأتابكة فارس ، وأتابكة لورستان ، وشاهات أرمينية ، . . .

وهذه الدول التركية الصغيرة ـ وقد نشأت على أنقاض الدولة السلجوقية ـ أدى بعضها خدمات جليلة سامية للاسلام فى الحروب الصليبية .

وعلى أثر ضعف الدولة السلجوقية وانقسامها ظهرت فى تركستان دولتان تركيتان ، إحداها مسلمة : وهى الدولة الخوارزمشاهية ، والأخرى غير مسلمة ، وهى دولة قار اختاى .



الدولة الخوارزمشاهية

كان السلاجقة قد ولوا رجلا من أتباعهم اسمه قطب الدين أنوشتكين على خوارزم بلقب خوارزمشاه ، وكان شجاعاً عادلا ، حسن السياسة ، فنال بعض الاستقلال فى عهدهم ، وقد تم الاستقلال لأبنائه من بعده حينما ضعفت الدولة السلجوقية ولقد بلغت دولتهم أوج عظمتها وعزها فى أيام تكش بن إيل أرسلان ، وهو من أعظم رجالات هذه الأسر مجداً حيث استولى على خراسان والرى وأصفهان ، وما جاورها ، وقضى على الحكم السلجوقى فى العراق ، وانتقل إلى حوزته العراق العجمى بما فيه الرى وهمذان ، وقد ألحق الهزيمة بجيش الخليفة الناصر عند همذان (١١٩٤م ٥٩٢هـ) . وكان قد طلب اليه أن يتخلى عن البلاد التى فتحها ، ويرتد إلى الشرق ، وحين تربع ابنه قطب الدين محمد على العرش استولى على أفغانستان . وانتزعها من الدولة الغورية ، كما استولى على إيران كلها ، وسلخ ماوراء النهر من «قاراختاى» وامتد سلطانه من شواطىء سيحون إلى سواحل دجلة ، ولما كانت هذه الدولة فى الأصل شعبة من الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد حافظت على النظم والتقاليد التى كانت مرعية عند السلاجقة ، وصارت على سنتهم فى تشجيع العلماء ، وتشييد المدارس ، كما كانت قدوة حسنة لملوك الاتراك جميعا .

ولهذه الدولة أحسن الأثر فى خدمة الآداب الفارسية ، وفى اللغة التركية كذلك ، وكانت تذكر بعظمة الدولة السلجوقية ، وتعد من أعظم الدول فى آسيا لما أحرزته من انتصارات باهرة ، ولعنايتها أثناء حكمها باقامة العدل بين الناس ، وبث المعارف والاداب فى مناطق نفوذها ، غير أن سوء تدبير قطب الدين محمد ملك الخوارزمشاهيين ، وطالعه المنحوس وحظه العاثر ، قضى على هذه الدولة باعتدائه على بعض التجار من رعايا جنكيز خان ، وأثار هذا العدوان حفائظ الغضب فى نفس جنكيز خان ، فوجه اليه جيشه ، وقامت الحرب بينهما على أشدها ، وهرب خوارزمشاه والجيش فى عقبه ، حتى اعتصم بجزيرة فى بحر قزوين فمات بها ! ! وأورث ابنه جلال الدين ملكا مضيعا ، فجاهد عشر سنين قضاها بين الجهد والشجاعة والاقدام والصبر والآباء ، ثم قتل مشرداً فى قرية من قرى الكرد .



دولة قاراختاى

أما دولة قاراختاى غير المسلمة فقد كان مبدؤ حكمها فى بلاد منشوريا وشمالى الصين . ولما انقضى عهدها من هذه البقاع . رجع الفارون من فلولها إلى الوطن الأصلى فى تركستان ، وأشعلوا نار الحرب بينهم وبين ملك التركستان الخاقانى (الخاقان أرسلان خان) ولكنهم هزموا شر هزيمة (١١٢٨ - ١١٣٣م) ، وكان آخرون من هذه القبائل التركية الغير مسلمة قد ساروا عن طريق الشمال . ووصلوا إلى مدينة «بالاساغون» فى تركستان الشرقية . بعد اجتيازهم سواحل «يتى ساى» ، وبلاد قبائل القيرغز ، فسلخوا هذه المدينة من الخاقانيين ، واعتبرت من وقتها سهداً لدولة «قاراختاى» التى استطاعت بعد ذلك أن تخضع لسلطانها الدولة الخاقانية الشرقية بعد الاستيلاء على كاشغر وختن وغيرها من المدن المهمة ، ثم أخذت تزحف إلى ماوراء النهر وخوارزم . فتغلبت فى وقعة خجند على السلطان محمود الخاقانى ملك الدولة الخاقانية الغربية التابعة للدولة السلجوقية كما تغلبت أيضاً فى موقعة «قطوان» شمالى سمرقند سنة (١١٤١م) على الخاقان الأعظم السلطان سنجر السلجوقى ، حتى اضطر السلطان إلى مصالحة «قاراختاى» على أتاوة سنوية يدفعها إليهم . بهذا امتد نفوذهم وسلكهم من بلاد القيرغز إلى مدينة بلخ ، ومن خوارزم إلى صحراء الغوبى .

إن هذه الدولة كانت تركية ما فى ذلك شك . ولكنها كانت غير إسلامية ، فلهذا لم يكن التعاون بين الملك والرعية على أساس وطيد من المحبة ، وكان يحصل أحياناً بعض الانشقاق ، ففى ذلك الحين قويت شوكة جنكيز خان فى منغوليا ، وتغلب على كوچوك خان رئيس قبائل نايمان ، فالتجأ هذا الأخير إلى تركستان ، واتصل بالأسرة المالكة اتصالا وثيقاً بالمصاهرة ، وبعد أن تزوج بابنة الخاقان أعلن نفسه خاقانا على الدولة ، وقد وقع ذلك بعد أن سلب منهم خوارزمشاه بلاد ماوراء النهر ، وانتقص نفوذهم ، وتقلصت حدودهم ، ثم بدأت عواصف جنكيز خان تهز أركان هذه الدولة . فوجد المسلمون فرصة سانحة للثورة والانتقام ، فانحازوا إلى جانب جنكيز خان الذى كان يترضاهم ويحسن سياستهم ، ثم قامت الحرب بين كوچلوك خان ، وجنكيز خان . فكان فيها المصرع الأخير لدولة قاراختاى .

قام بعدها جنكيز خان بتوحيد الأتراك تحت راية واحدة ، وحلت الدولة المغولية محل دولة قاراختاى ، ودولة خوارزمشاه معاً .



الدولة المغولية التركية

——:o:——

أول ما قامت هذه الدولة تأسست فى منغوليا . وذلك أنه كانت لجماعة المغول إمارة صغيرة من أسرة تمت إلى قبائل «تغزغز» التركية بصلة ، وهاجرت من التركستان الشرقية إلى منغوليا على أثر مهاجرة الأويغوريين إليها سنة ٨٤٠ ، وكان سابع أمرائها «يسوكى بهادر خان» فلما توفى سنة ١١٧٥م آلت السلطنة إلى ابنه تيموجن بالوراثة ، ولم يكن هو إذ ذاك قد ناهز الثالثة عشر من عمره ، ولكن الفتى كان قد بلغ مبلغ الرجال قوة وجسما ، فهو يمتطى صهوات الجياد طول النهار ، ويجيد رماية السهام من القسى ، وكان قوى النفس ، فعقد عزمه على أن يخلف والده على الزعامة لرجال القبائل ، إلا أن تلك القبائل أبت زعامته ، وحاول الشيوخ أن يتخلصوا من منافسهم الفتى ، فصاروا يطاردونه كما يطارد الوحش ، ولكنه ظل يكافح فى سبيل الوصول إلى غايته ، وهى زعامة القبائل ، وبمرور الزمن بدأ يجتمع حوله نفر من الأنصار ممن كانوا يلتفون حول أبيه ، وقبل أن يبلغ العشرين أصبح زعيم قبيلته ، فمضى يحوك الدسائس ويحارب لكى يضم القبائل الاخرى إلى قبيلته ، ولم يرض بمنزلة دون منزلة الزعيم ، وحارب ابن عمه «جاموقا» فغلب عليه

سنة ١٢٠١م ، ثم استطاع أن ينشر نفوذه بين جميع القبائل فى شرق منغوليا بعد أن غلب على طغرل خان صديقه القديم ، وزعيم قبيلة «كرايت» سنة ١٢٠٣م .

وبعد ثلاث سنوات استولى على غرب منغوليا بعد تشتيت قبائل «نايمان» القوية ، وبذلك انضوى تحت لوائه جميع القبائل التركية وغيرها فى بلاد المغول ، وجعل منها قوة واحدة وكان هو قائدها الاوحد ، وذاع صيته ، فى جميع السهول المتراميه التى يعيش فيها قومه . وفى تلك السنة (١٢٠٦م ٦٠٤هـ) عقد تيموجن مؤتمراً عظيما (قورولتاى) اجتمع فيه جميع زعماء القبائل ورؤسائها ، وأعلن الشامان «قسيس الديانة الشامانية» فى هذا المؤتمر : (أن السماء قد خلعت على تيموجن لقب «جنكيز خان») وقد أصبح اسمه من ذلك الحين «جنكيز خان» وهو فى الثانية والاربعين من عمره ، ولقد كان رجلا جباراً مجيداً لفنون الحرب ، ومدرباً على قيادة الجيوش ، شديد البطش ، قليل الكلام ، غليظ القلب ، كثير التفكير .

واستطاع فى مدة قليلة أن يخلق جيشاً قوياً مدرباً أحسن تدريب ، وجلب من الاتراك الاويغوريين ، والاتراك المسلمين ، والصين أسلحة جديدة ومعدات حربية ، وأعد إدارة قوية ليفتح بها العالم ، ثم استولى على دولة «تانغوت (هيا)» الواقعة

على حدود الصين الغربية سنة ١٢٠٧م ، وكان قد أخضعها امبراطور كين (امبراطور الصين الشمالية) منذ آن قريب ، فألقت بنفسها فى أحضان ذلك الفاتح التركى الجديد ، وأصبحت له أكبر عون على تحقيق آماله الكبرى ، ثم تأثر إخوانه الأتراك بتلك الوحدة ، فاتسع سلطانه بانضمام الأويغوريين اليها فى تركستان عام ١٢٠٩م ، وانضمام «أرسلان خان» خاقان دولة قارلق التركية المسلمة الواقعة فى شمال «ينى صو» فى تركستان ، وبذلك صار جنكيز خان خاقانا عظيما ، وعنواناً للوحدة التركية ، تخضع لسلطانه أكثر القبائل وزعمائها ، وبهذا تكاثرت جموعه ، وتعاظم أمره .

بدأ جنكيز خان بالهجوم على الصين سنة ١٢١١م ، واخترق السور العظيم ، وقذف بكتائبه على البلاد الواسعة فى دولة كين ، أو الامبراطورية الشمالية حتى استولى على عاصمتها «بكين» وفر الامبراطور الصينى وجنوده أمام القوات التركية المغولية ، فكانت هزيمة كاملة شاملة سنة ١٢١٦م ثم وجه هجومه إلى الغرب ، وقضى على دولة «قاراختاى» بعد أن قتل الخاقان «كوشلوك خان» سنة ١٢١٨م .

« * »

لما فرغ جنكيز خان من فتح هذه البلاد الواسعة أراد أن

يستريح من متاعب الحروب ، وأرسل وفداً من كبار المسلمين إلى السلطان قطب الدين محمد خوارزمشاه يطلب منه عقد معاهدة بين الدولتين التركيتين ، وأرسل اليه الهدايا النفيسة ، وطلب أن ييسر للتجار التردد بين المملكتين ، فاستجاب له خوارزمشاه .

وفى سنة ١٢١٩م (٦١٥هـ) سافر تجار من مملكة جنكيز خان إلى «اترار» وهى بلدة على نهر سيحون فى حدود مملكة خوارزمشاه ، فكتب واليها الى خوارزمشاه يخبره أن هؤلاء جواسيس لجنكيز خان جاءوا فى زى التجار ، فامره بقتلهم وسلب أموالهم ، فلما بلغ ذلك جنكيز خان كتب الى خوارزمشاه يطلب منه ارسال واليه على «أترار» ليقتص منه ، فكانت الاجابة قتل الرسل ، فقام جنكيز خان بجميع عساكره الجرارة ، وعبر نهر سيحون ، وليس أمامه من يناوشه ، أو يشغله عن قصده . وسار حتى أتى بخارى . ودخل هو جنوده المدينة فدكوها دكا وملأوا القلوب رعباً (٤ ذى الحجة سنة ٦١٦هـ) ثم ساروا نحو سمرقند ودخلوها عنوة ، وقتلوا بها من قتلوا ، ، وفعلوا ما فعلوا .

بهذا الفتح الجديد توحد تحت راية جنكيز خان جميع بلاد الترك فى آسيا الوسطى ، فنرى أن الكتلة التركية قد تجمعت من تلك البلاد الواسعة التى كانت حياتها فصولا متوالية من

الحروب يفنى بعضها بعضاً ، فأهاب بها هذا القائد التاريخى ،
وجعلها صفوفاً متراصة مستجمعة لمرافقها وقواها وأصبح هؤلاء
الاتراك بين عشية وضحاها خلية يقظة ، ومعسكراً ملتهباً بالحماس
والحمية نحو الغزو والتوسع اذ بدأ منذ ذلك يفكر فى مد سلطانه
الى الاسم التى كانت قبل ذلك خاضعة لتركستان باعتبار أنه
يحافظ على ذلك الحق ، ويثأر للمهزومين ، ويتبوأ مكانهم فى
الملك الذى لم يستطيعوا أن يحتفظوا به فى تلك الآونة ، وكان
اعظم باعث على قيام هذه الحوادث والغزوات وفرار خوارزمشاه
أمام مطارديه ، فوجه عشرين ألفاً من خيرة جنده لفتح إيران ،
والقبض على خوارزمشاه ، فسار هؤلاء الجند وعبروا نهر جيحون ،
وكان خوارزمشاه مقيما بغربيه يستعد ، فلما علم بقدوم المغول
قصد مدينة نيسابور ، فقصدوها وراءه ، فلما أحس خوارزمشاه
بقربهم منه هرب إلى مازندران ، فاقتفى المغول أثره من غير أن
يعرجوا على نيسابور وهكذا ظل «خوارزمشاه» ينتقل من مدينة
إلى أخرى والمغول فى أثره حتى وصلوا إلى «مرسى» من بحر
الخزر ، ونزل إلى قلعة فيه ، فعادوا عنه . وهذه الفرقة من تلك
الجيوش التركية المغولية ، تسمى «التتر المغربة» لأنهم ساروا
ميممين غرب خراسان ، ثم سارت هذه الفرقة إلى ماز ندران
فملكتها فى أسرع وقت مع حصانتها ، ولما تم لها فتح هذه

المدينة استأنفت سيرها قاصدة بلاد الرى ، ودخلتها على حين غفلة من أهلها ، ثم سارت إلى همذان ، فطلب صاحبها الأمان فأمنته هو ومن معه ، ثم استانفت المسير إلى قزوين ، فدخلتها عنوة ، ثم إلى أذربيجان فصالحت ملكها «أزبك خان» وواصلت المسير بعد ذلك إلى تفليس حيث تجمع الكرج هناك ، وخرجوا بحدهم وحديدهم ، ولكن ذلك لم يجدهم شيئاً فا نهزموا شر هزيمة وقتل منهم من لا يحصى عدده (ذى القعدة ٦١٧هـ) .

لم تلبث تلك الفرقة التى تمثل الشجاعة فى قيادتها وأجنادها أن كرت راجعة فى مستهل منه ٦١٨هـ بعد ذلك المجهود الجبار الذى بذلته فى كسب حروبها ، وفى عودتها عرجت إلى (مراغة) فملكتها عنوة ، ثم أربل كذلك ، وبعدها عادت إلى همذان ثم أذربيجان ومنها إلى «در بند شروان» ، فاستولوا على مدينة شاخى عنوة ، ثم خرجت منها إلى البلاد الشمالية ، وهى «دشت قپچاق» وفيها عشائر تركية عديدة قاتلوها قتال الأبطال ، ثم اضطروا تحت هذا الضغط القوى أن يتفرقوا فى جميع الأقطار ، وورد منهم جم غفير الى مصر والشام ، وهم الذين أسسوا فيها بعد دولة المماليك البحرية فى مصر ، وأنشأوا بها حضارة إسلامية ، وآثاراً باهرة ، يفاخر بها الترك والاسلام .

قصدت الجيوش التركية المغولية بعد ذلك بلاد الروس ،

فاتفق هؤلاء مع فلول القپچاق أن يكونوا يدا واحدة ، ولكنهم هزموا أشنع هزيمة أمام القوات التركية المغولية ، ثم واصل المغول سيرهم قاصدين دولة البلغار التركية سنة ٦٢٠هـ فلما سمع أتراك البلغار بقربهم كمنوالهم فى عدة مواضع . واستجروهم إلى أن جاوزوا مواضع الكمناء ، فخرجوا عليهم من ورائهم ، فقتل منهم كثيرا جدا . . . هذا طرف من أخبار طائفة صغيرة من القوات التركية المغولية فى الغرب .



مدى اتساع امبراطورية جنكيز خان

ذكرنا ان جنكيز خان سير تلك الفرقة من جيشه لطلب خوارزمشاه وفتح إيران وأذربيجان والقوقاز ، والبلاد الشمالية ـ أما هو فقد أقام بسمرقند ، وهناك سير جيشا آخر عليه أحد أولاده لمملكتى خراسان وأفغانستان ، فتدفقوا نحو الهند ، وعبروا النهر ، وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فأمنوهم ، وتسلموا المدينة سنة ٦١٧هـ ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئا بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة ، ولم يمض إلا القليل حتى دخل معظم الشرق الاوسط تحت حكم الامبراطورية التركية المغولية ، فتم بذلك لجنكيز خان مملكة عظيمة واسعة : مترامية الاطراف تبتدىء شرقاً من المحيط الهادى ، وتنتهى غرباً الى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس والبلغار ، وجنوباً ببلاد الهند ، وشمالا بالبحر الشمالى . . . كل ذلك تم له فى مدة قصيرة .

وقد مات جنكيز خان سنة ١٢٢٧م (٦٢٤هـ) بعد أن قسم ملكه العظيم بين ثلاثة من أبنائه .

«جغتاى خان» و «جوجى خان» و أوقتاى خان» ـ أما رابع أبنائه (تولى خان) فقد جعله خليفة له فى عرش «قاراقورم» وفى الرئاسة العامة على إخوته الثلاثة كذلك ، ، ولم تلبث الايام أن رفعت نجم أخيه أوقتاى خان عاليا إذتم انتخابه خاقاناً أعظم

فى مجلس الاعيان المنعقد فى أوائل عام ١٢٢٩م ، فاتبع هذا الخاقان العظيم سنة أبيه ، فامتدت الفتوحات الى أرجاء واسعة ، وأخضع البقية الباقية من الصين ، وأرسل جيشاً لفتح أوروبا ، وعلى رأسه (باتوخان بن جوجى خان) ، وانتخب القائد المشهور سبوتاى ليكون مستشارا له ، فتقدم الجيش نحو الروسيا ، واخترق الغابات فى طريقه حتى ظهر أمام مدينة (ريازن) فهدم سورها وضرب حصونها ثم استولى عليها فى ديسمبر سنة ١٢٣٧م ، كما استولى بعد ذلك على «موسكو» نفسها ، ولم يلبث أن تقدم نحو «كييف» واستولى عليها عنوة ، وعندئذ انقسم الجيش الى قسمين ، كانت وجهة أولها بلاد المجر تحت قيادة «باتو خان» أما الثانى فاتجه الى بولندا تحت قيادة «بيدار خان» وفاز كلا الجيشين بانتصارات باهرة حتى التقيا سوياً فى فينا .

فى هذه الاثناء ورد نبأ موت الخاقان الاعظم «أوقتاى خان» ، وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٢٤١م ، وقد خلف أوقتاى خان ابنه كيوك خان فحكم مدة سنتين ثم مات ، وبموته اندلعت نيران الفتن الداخلية وكان وقودها المنافسة بين أسرتى أوقتاى خان وجغتاى خان ، وكانت نتيجة ذلك أن انتقلت الملكية من أسرة أوقتاى الى أسرة تولى ، فآل الملك الى «مانجو خان» ، وبعد أن تم له الامر غزا بلاد التبت وأخضعها ، وعين أخاه قوبلاى خان حاكما عاما لبلاد الصين ، وقد فتح جزيرة «كيوشو» من جزر

اليابان ، وولى أخاه الثانى «هولاكو» قيادة حملة لغزو بلاد العراق وسوريا ، فكانت أعماله شرا مستطيرا على المسلمين .

وبعد وفاة مانجو خان خلفه أخوه الاصغر (آريق بوغا خان) ولم يمض فى الحكم إلا سنة واحدة اختلف فيها الزعماء من أطراف تلك الامبراطورية المتنائية من بلاد المجر وبولندا وسوريا وآسيا الصغرى والعراق والصين واليابان ، وقد انعقدت جمعية الاعيان لانتخاب الخاقان فنودى بقوبلاى خان خاقانا على الامبراطورية ، ولكن هذا المؤتمر لم يكن ممثلا لكل الزعماء ، بل كان مشتملا على انصاره وهيئة اركان حربه فقط ، فانقسمت الامبراطورية بذلك الى أربعة أقسام .

(١) **الامبراطورية الشرقية** : وعاصمتها بكين ، وتشمل بلاد الصين ومنغوليا والتبت ، وبعض الجزر اليابانية ، وقد ورثها أبناء قوبلاى خان وأحفاده .

(٢) **الامبراطورية الغربية** : وحاضرتها بغداد ، وتضم بلاد فارس والعراق ، وتتمتع بنفوذ قوى فى سوريا وآسيا الصغرى ، وقد ورثها أبناء هولاكو وأحفاده .

(٣) **الامبراطورية الشمالية** : أو امبراطورية (آلتون أوردو) ، وتشمل حوض نهر الفلجا وسواحل البحر الاسود الشمالية وبلاد

روسيا الاصلية . وأوربا الشرقية ، وقد ورثها أحفاد جوجى خان .

(٤) **امبراطورية تركستان** : وهى تشمل بلاد تركستان الشرقية والغربية عدا خوارزم ، ويطلق عليها أيضا : «امبراطورية چغتاى» نسبة الى چغتاى خان بن چنكيز خان الذى كان نصيبه ملك تركستان ضمن الاقسام الاربعة التى قسم اليها أبوه هذه الامبراطورية العظمى ، على أنه لم يكن مستقلا بالملك فى حياة والده ، إذ كانت الامبراطورية - كما أسلفنا - مقسمة بين أبناء چنكيز خان ، وكان هؤلاء الملوك تابعين للخاقان الأعظم ، وكان يحكم اقليم ماوراء النهر فى حياته محمود يلاوج ثم ابنه مسعود باسم الخاقان الاعظم .

ويعتبر المؤسس الحقيقى لهذه الدولة قارا هولاكو حفيد جغتاى خان ، وكان الخاقان الاعظم كيوك خان قد عين (ييسو مانجو خان) ولى عهد له ، ولكن حدثت بعد ذلك منازعات وخلافات أدت إلى أن يكون السلطان هو الغو خان حفيد جغتاى خان لا «ييسو مانجو خان» ، وقد أسس امبراطورية مستقلة فى هذه البلاد حيث جعل تحت صولجانه تركستان الكبرى وبلاد أفغانستان ، وأعلن استقلاله ،،، وبعد وفاته (سنة ١٢٦٥م) خلفه قايدو خان من اسرة أوقتاى خان ، ثم ابنه

جاپار خان (١٢٦٦م) ، وبعدها انتقل الامر الى اسرة (جغتاى خان) السابقة (١٣٠٦م) ، وآل الملك الى «دووا خان» واصبح هو المؤسس الحقيقى لامبراطورية جغتاى .

وفى سنة ١٣٢٦م تبوأ عرش تركستان «طرما شيرين خان» واعتنق الاسلام ، وأسلم كذلك بعد قليل السلطان «توغلوق تيمور خان» (١٣٤٧ - ١٣٦٣) الذى أسلم باسلامه ..١٦٩٥٠ نفساً من أسرته وقواده فى يوم واحد فى كاشغر ، ومنذ سنة ١٣٤٧م بدأ دور الانحطاط فى هذه الدولة ، وأصبح أمر البلاد فى يد القواد ، بينما كان السلاطين فى شبه عزلة سياسية ، وكأن أمر الحكم لا يعنيهم .



الدولة التيمورية الكبرى

ظل الأمر على ما ذكرنا حقبة من الزمن الى أن جاء البطل الأوحد ، والفاتح الأعظم (تيمور لنك) فأسس الدولة التيمورية الكبرى ، وكان تيمور لنك رجلا من أدهى رجال الحرب فى تاريخ البشرية على الاطلاق ، وزعيما من أقدر الزعماء على بعث الأوطان بعد اضمحلالها ، جبار الجسم ، خارق القوة .

ولد فى مدينة (يشيل شهر «شهر سبز») ، من ابوين تركيين من قبيلة «بارلاس» التركية النبيلة ، وترعرع فى ربوعها ، وظهرت عليه منذ صغره مخايل الذكاء والشجاعة ، حتى أنه كلف بتذليل الخيول الصعبة القياد ، وبصيد الوحوش مع أمثاله من الشجعان ، وكان مثار الدهشة بين أترابه وزملائه بما كان يظهر من تفنن وبراعة فى ركوب الخيل ودقة الرمى فى القنص والصيد ، وكان والده «تورغاى» شيخا لقبيلته ، ينفق أكثر وقته فى صحبة الفقهاء وعلماء الدين من المسلمين ، وأما والدته فقد ذهب بها الموت وهو صغير ، ولم يفكر أحد فى تدريب تيمور وتعليمه ، ولكنه كان أستاذ نفسه ، يتعلم وحده ، ويختبر الدنيا بنفسه .

غادر تيمور بلده متوجها الى سمرقند ، لا يملك إلا سيفه ،

وليس له من الحرس غير خادمه الامين عبدالله ، وانتقل بنفسه الى وسط جديد ، كله حماس ونشاط ، حيث يعيش بين الجنود والأبطال الذين لا يعتمدون على غير السيف فى هذه الدنيا المتقلبة ، وتلك الحياة المضطربة ، فانخرط فى خدمة الأمير «قازغان» نائب الخاقان ، وخاض غمرات الحروب ، فأظهر فيها من البأس وشدة الشكيمة والمهارة ما رفعه فى عين قومه فوق رفعته بنسبه وشرف منصبه .

فلما وجده الأمير «قازغان» شاباً جريئا قد يفيده فى المستقبل رأى أن يزوجه فتاة من أنسبائه ، ورقاه إلى رتبة (بكباشى «رئيس الألف») وقد تمكن الأمير قازغان نائب الخاقان بواسطة تيمور من النجاح فى عدة غزوات شمالا وغرباً .

ولما مات الأمير قازغان حدثت فى البلاد ثورات واضطرابات ، وأخذ كل واحد من الأمراء ورؤساء القبائل يستعد للدفاع عن أملاكه ، وعلى محاربة غيره إذا استطاع إلى ذلك سبيلا . وكان الخاقان توغلوق تيمور خان فى مدينة «المالق» يراقب الحوادث ، فلما رأى أن مملكة قازغان قد تمزقت أوصالها سقط عليها بجنده ، ولما رأى بقية الأمراء أن جموع الخاقان الاعظم تتقدم نحوهم انسحبوا جميعاً وهربوا من وجهه ، ولكن تيمور لنك أظهر الخضوع ، واعترف بسلطانه ، فعهد الخاقان اليه بالامارة على

قبيلة بارلاس ، ورقاه الى رتبة «تومن بكى» أى (رئيس عشرة آلاف من الجند) . ولما أقام الخاقان ابنه «الياس خوجه أوغلان» حاكما على البلاد ، جعل تيمور مستشاراً له ، غير أن شقاقا وقع بينه وبين وزراء الياس لم يلبث بعده أن جمع رجاله وأعلن الثورة ليهاجم رجال الخاقان ويكسر شوكته ، فلما علم الخاقان بثورته أصدر أمراً باهدار دمه ، ففر تيمور من وجهه حيث لاقى من الأهوال شيئاً عظيماً . . . كل هذا جعل ذويه وأصدقاءه يتفرقون عنه بعد أن ذهبت الأيام بشوكته المكتسبة والموروثة عن أجداده ، وحتى الثروة أيضاً تبخرت فى خضم هذه الكوارث ولم يبق منها سوى جواده ، ولكن الشدائد ما كانت لتؤثر فى روح تيمور القوية ، بل على العكس من ذلك كانت تشحذها ، وتجلو فى نفسه كل معانى الرجولة الكاملة . . . فبينما هو طريد شريد هائم ، لا يكاد يملك قوت يومه وضع لنفسه تصميما لا نقاذ وطنه من ظلم الخاقان ، وإعادة مجد تركستان ، بل إن نفسه العظيمة كانت تحول فيها خواطر فتح العالم بأسره ، فوطد عزمه على تنفيذ ذلك ، ولو كلفه خرط القتاد وفعل المستحيل ، (على قدر أهل العزم تاتى العزائم) .

فى هذه الأثناء اجتمع الأمير حسين شقيق زوجته ، وكان هو الآخر فاراً من وجه الخاقان ، ووجد تيمور فى نسيبه عوناً صادقاً ، ونصيراً جديداً ، وإن كان هذا الاخير يعتقد فى نفسه

الشرف وعظم الشأن أكثر من تيمور ذاته إلا أن زوجة تيمور كانت سبباً فى التوفيق بينهما ، فاتفقا أمام الخطر الداهم ، وخاضا غمار الحروب معاً ، وفيها جرح تيمور فى يده ورجله ، فأصابه العرج من وقتها ، فسمى لذلك «تيمور لنك» أى «تيمور الاعرج» .

ما لبث تيمور لنك بعد ذلك أن استعاد قوته وعزه شيئاً فشيئاً ، واقتاد السعد اليه مرغما ، حتى نودى به خاقاناً على التركستان الكبرى فى جمعية الاعيان التى انعقدت فى مدينة سمرقند سنة ١٣٦٩م ، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة .

فى الايام التالية أخذ تيمور ينظم شئون المملكة ، ففى أقل من عشر سنين استولى على تركستان الشرقية وخوارزم ، وهب يطارد أعداءه أينما كانوا ، ويقذفهم بالكتيبه تلو الكتيبة من أشياعه وأنصاره ، ورجاله وأتباعه ، لا يترك لهم فرصة للراحة والاستعداد ، وبذلك استطاع تيمور أن يوطد ملكه ، ويضم ولايات تركستان بعضها إلى بعض ، ويؤلف وحدة سياسية بينها ، حتى يتمكن بعد ذلك من مد فتوحاته العظيمة إلى أطراف المعمورة . . . لم يكتف تيمور بما وصل اليه من عظم الشأن وضخامة السلطان ، فراح يطلب أن يضم إلى تركستان كل البلاد الواقعة حولها ، ولذلك تدرج فى فتوحاته ، واستولى على هرات وما حولها ، وبافتتاح هرات اتسعت مملكته ـ لأن هذه وحدها ـ

كانت تضم ربع مليون من الانفس ، ومئات من المدارس ، وثلاثة آلاف حمام ، وعشرة آلاف مخزن تجارى .

وفى هذه الآونة هرب «توقتاميش خان» أحد أمراء القريم إلى بلاط تيمور ، وكان من أتباع ، أوروس خان ، خاقان الدولة المغولية الأوروبية ، أى : (دولة التون أوردو) . فجاء بعض رجال الخاقان فى طلبه من تيمور ، فلم يقبل رده ، بل شد أزره ببعض رجاله حتى مكنه من الجلوس على عرش المملكة التى كان طريداً منها ، ولكن توقتامش لما وصل إلى العرش أصبح رجلا غير ذلك الأمير الهارب الذى جاء يطلب مساعدة تيمور ، وطمع فى عرش تركستان نفسه ، فهاجم حدود تيمور وقت أن كان فى جولة له ببعض جهات خراسان ، فما أن جاءه الخبر حتى سار اليه برجاله ، فهرب توقتاميش ، ولكن غيابه لم يطل كثيراً ، فتقدم نحو تركستان مرة أخرى ، وأمر تيمور جنده بالتقدم نحو توقتاميش حتى هرب ، فتقدم تيمور فى أثره إلى عاصمته «سراى» ومزق شمل رجاله فهرب بعضهم وانضم الآخرون إلى تيمور الفاتح .

اتجه بعد ذلك إلى موسكو ففتحها ، ومحق مدينة دون ، واستولى على البلاد الروسية كلها ، ثم عاد الى تركستان بطريق جديد ، ونزل القوقاز ، واستولى عليها ، ثم مشى إلى بلاد خراسان

بجنده وجيشه ، فدفعت له الجزية أربعة عشر مدينة ، ووصل إلى عاصمته سمرقند بعد فتوحات عظيمة .

توجه تيمور بعد ذلك إلى بلاد فارس ، لأن الحالة الاجتماعية هناك لم تكن تبعث على الرضا ، فقد كان ملوكها وأمراؤها لا يفكرون فى غير مصالحهم الشخصية وملذاتهم الدنيوية ، ، وإلى كافة ألوان المرح والعبث واللهو ، ويتركون البلاد وشأنها ، لا يعملون على تحسين الحالة ، واستتباب الامن ، فنزل تيمور اليها على رأس سبعين فرقة من أبطال تركستان حتى أشرف على أصفهان ، فما كاد يصل ، ويحط رحاله خارج المدينة ، حتى خرج كبارها يسلمون عليه ، ويعرضون طاعتهم وخضوعهم ، ولكن لم يأت الليل بظلامه الساتر حتى خرج الناس من بيوتهم ، وقتلوا من التركستانيين ثلاثة آلاف نفس ، فيهم عدد لا يستهان به من الأكابر والقواد . . . غضب تيمور لما حل بأبناء وطنه ورجال حاشيته وقواده فأمر كل فرد من أفراد جيشه أن يحمل اليه رأس فارسى ، وكان عدد جنوده سبعين ألفاً وعلى أثر ذلك وضع تيمور يده على كل بلاد فارس ، ودفعت له الجزية كل المدن ، وذكر الخطباء اسمه على المنابر ، ثم تدفق بجيوشه نحو الفرات ، فتغلب على السلطان أحمد جلاير ، وكان ظالماً ، فأنقذ رعاياه من جوره ، واستولى بغداد ، ثم سار صوب الهند ، وعبر نهر الهندوس ، وتم له فتحها فى مدة وجيزة ، ودخل دهلى عاصمة الهند فاتحاً

منتصراً ، واغتنم منها ما لا يعد ولا يحصى من الجواهر والأموال ، وبهذا دانت له جميع ربوع آسيا ، ولم يبق أمامه إلا بلاد العرب والبلاد العثمانية التي سيأتي دور كل منها فيما بعد .

« * »

عاد تيمور من حرب الهند في شهر مايو سنة ١٣٩٩م ، وفي شهر يوليو من نفس السنة ركب على رأس جنده ومضى يزحف على البلاد العربية ، فغزا سوريا ، والشام ، وحارب السلطان بايزيد خاقان الدولة العثمانية التركية ، وأسره مع ابنه (٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢م) واستولى على الأناضول كلها ورفرف علم تركستان في سمائها ، ووحد الاتراك تحت راية واحدة فتقدم اليه سلطان مصر بالطاعة بعد الانتصار العظيم وأرسل الهدايا والتحف ، وسجن صاحب بغداد ألد أعداء تيمور إرضاء له .

وأما ملوك أوربا فقد وقفوا مدهوشين ذاهلين يخطبون وده ويرسلون الرسل والكتب إلى تيمور سيد آسيا وخاقان تركستان .

هذا هنري الرابع ملك انجلترا الذي يحارب زعماء الجرمان بعيداً عن عاصمة ملكه كتب إلى تيمور يهنئه بانتصاراته العظيمة .

وهذا شارل السادس ملك فرنسا بعث بتقديره واعجابه إلى

تيمور لنك خاقان تركستان ومعه كتاب وبعض الهدايا .

وأما عمانوئيل امبراطور بيزنطه فيقدم طاعته لتيمور . ويبعث اليه بالهدايا والتحف ، وأما السفن الجنوية فقد رفعت علم تركستان على مقدمتها ، وأرسل الدون هنرى ملك قشتاله فى أسبانيا نبيلا من رجاله إلى تيمور ، فلحق الرسول بتيمور لنك حتى وصل الى سمرقند عاصمة تركستان وراح يكتب عن مشاهداته .

وعاد هنرى الثالث فأرسل إلى تيمور وفداً آخر برياسة النبيل «كلافيجو» فذهب هذا إلى آسيا الصغرى فوجد تيموراً قد تركها عائداً إلى سمرقند فلحق به وفاقاً للاوامر المعطاة له .

ولما رجع تيمور إلى تركستان راح ينظر فى ماجرى فى غيابه وما قام به نوابه من الادارة والاحسان فأمر بقطع رؤوس بعضهم واثنى على البعض الآخر من المخلصين وقدرهم وأعلى شأنهم . وأمر البنائين بانشاء قصر جديد تكون حجارته بيضاء لامعة وأحس فى نفسه قوة جديدة فصمم على فتح الصين وزحف اليها بجيشه العرمرم ولكن الموت داهمة فى الطريق فاسلم الروح بالقرب من مدينة «أوترار» ١٧ فبراير سنة ١٤٠٥م وهو ابن سبعين سنة ونقل جسده الى العاصمة ودفن بها .

ولقد أعقب موت هذا الخاقان العظيم بعض الاضطراب

السياسى فى البلاد وقد استطاع ابنه شاه رخ أن يثبت سلطانه على معظم ملك أبيه ، ويكبح الثائرين من أقاربه ، وبعد ان توفى تمكن ابنه «أولوغ بك» أيضا من المحافظة على امبراطورية تركستان وممتلكاتها من الهند الى العراق ونشطت فى عهدهم العمارة والحضارة واستبحر العمران واتسعت التجارة واستد السلام على الامبراطورية .

وقد أكثر تيمورلنك وأحفاده من الاصلاحات النافعة فى تركستان فعنوا بالزراعة واهتموا بالرى ، ومهدوا الطرق ، وأمنوا السبل . وقد افتخر تيمور فى نظاماته (توزوكات) بأنه أعاد الأمن الى ربوع آسيا بحيث أصبح يتسنى للصبىء الصغير أن يسير بكيس من ذهب من شرق البلاد الى غربها آمنا مطمئناً .

وعنى تيمور لنك بتأسيس المدارس والمساجد والجوامع والمراصد والمكاتب والمصانع والمستشفيات . وتقدمت فى عهده الفنون الصناعية والتجارية والزراعية فنشطت التجارة وصارت ترد متاجر البلاد القاصية من الشرق والغرب فازدحمت تركستان بساكنيها ، وصارت مركز تجار الشرق ، وقد ابتنى فيها القصور الشاهقة والرياض النضرة ، وحذا حذوه أبناؤه وأحفاده ، فوصلت تركستان الى قمة المجد والشهرة .

وكان أبناء تيمور وأحفاده (شاه رخ ، واولوغ بك وحسين

بايقرا ، وخليل سلطان ، وبابر شاه ماهرين فى العلوم والرياضة ـ والهندسة والفلك ، وبنى «اولوغ بك» حفيد تيمور مرصد سمرقند واليه ينسب زيج أولوغ بك أو الزيج الجديد السلطانى ، وترجم الأوربيون كثيرا من كتبه ، واستفادوا من بحوثه وتدقيقاته ،

وكان عصر الدولة التيمورية عصر ازدهار للآداب والفنون ، وكان بنو تيمور يعنون بالكتب وينظمون الشعر ، وكثير منهم أجاد فى شعره فالسلطان «حسين ميرزا» كان فى شعره جليل القدر عالى الكعب ، وشعره التركى يفوق شعر كثير من شعراء وقته ، وقد كتب أيضا بعض آثاره باللغة العربية .

يقول الدكتور عبدالوهاب عزام بك «عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية» إن بنى تيمور كانوا فى أساليب حياتهم يشبهون أمراء أوربا المعاصرين ، أو أمراء فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولكنهم كانوا فى الأدب أعظم أثراً ، كان شاه رخ وأولوغ بك وباى سنقر والسلطان حسين محبين للكتب ، يعنون بالاجادة فى نسخها وتذهيبها وتحليتها ، فهم لا يقلون عن معاصريهم دوقات برجندى (Bergundy) ولا يقاس بهم عشاق الكتب فى ايطاليا خلال القرنين السادس عشر ، والسابع عشر .

وكان باى سنقر والسلطان حسين فى ايران كما كان موريس فى انجلترا ، إذ أنهم بعد أربعة قرون لم يكتفوا بجمع الكتب بل

خلقوا فنونا لها ، ولا يمكن أن يقاس بالكتب الشرقية فى ذلك العصر أجمل ما عرفته أوربا من الكتب . وكان باى سنقر خاصة مولعا بالفنون الكتابية فنشأ فى رعايته أجمل الأساليب فى صناعة الكتب ، وهو من أعاظم المولعين بالكتب فى العالم كله . كان يعمل بأمره وتشجيعه أربعون صانعا فى نسخ الكتب ، وبلغت العناية بالورق والتصوير والتجليد حداً لا يعرف نظيره اليوم ، وصنع فى قصورهم من السلاح والدروع والادوات والآنية المحلاة بالعاج ما لم تعرف مثله الأقطار الأخرى وقد نبغ فى هذا العصر كثير من الكتاب والمؤلفين ، وقد عد المؤرخ خواند مير فى كتابه «حبيب السير» زهاء مائتين من الكتاب والمؤلفين فى ذلك العصر .

وقصارى القول أن عصر تيمور وأبنائه كان أزهر العصور للعلوم والفنون والصناعة والزراعة وفى ذلك العهد تقدمت اللغة التركية تقدماً باهراً ، وأنجبت تركستان أعظم شعراء الأتراك وأكبر أدبائهم وهو «مير على شير نوابى» الذى أجمع مؤرخوه على أنه كان من الأفذاذ الذين تزين بهم تاريخ الاسلام .

فلما انقسمت الدولة التيمورية وعم النزاع فى تركستان واشتد الاضطراب استطاع «محمد ظهير الدين بابر» من أحفاد تيمور أن يؤسس فى الهند دولة مستقلة لنفسه تعد من أعظم

الدول التى عرفها تاريخ الاسلام . سيطرت على الهند كلها حينا وبقى سلطانها فى تلك البلاد إلى سنة ١٨٥٨م ١٢٧٥هـ ثم اغتصبها الانجليز من أبناء تركستان وأصبحوا حكاما غير منازعين .

وأما فى تركستان فقد حلت الدولة الأزبكية محل الدولة التيمورية وحفظت مجد تركستان وعظمتها ، إلا أن ملوكها كانوا محبين للسلام ، بعيدين عن الحرب ما لم يكرهوا عليها ، واعظم ملوك هذه الأسرة السلطان أبو الفتح محمد خان الشيبانى (شايباق خان) وابن أخيه السلطان عبيد الله خان وكانوا من أسرة جنكيز خان .

وجملة القول أن القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر يعد من أزهى العصور التى تبوأت فيها الأمة التركية أوج عظمتها فقد انتصر العثمانيون فى فتوحاتهم شرقا كما امتدت فتوحاتهم إلى «فينا» غرباً ، وكان النصر كذلك حليف التركستانيين فقد امتد سلطانهم فى الجنوب إلى خليج البنغال فى الهند .

وفى سنة واحدة (أعنى سنة ١٥٢٦م) خدمت الأقدار كلا الجانبين من الأمة التركية ، فقد استولى العثمانيون بعد واقعة موهاش على ما يتاخم نهر «طونا» فى الغرب كما استولى التركستانيون بعد واقعة «بانيبات» على حوالى نهرى هندوس

وكنج وبلاد الهند الوسطى فى الجنوب ، وأما فى جهة الشمال فقد رأينا الأتراك القازانيين يبسطون نفوذهم وسلطانهم على بلاد الروس ، ونستطيع هنا أن ندع المؤرخ الفرنسى الشهير (Tluoeirs) يحدثنا بعبارة موجزة عن جلال ذلك العصر التركى الزاهر الباهر فقد قال «إن القرن السادس عشر الميلادى عصر ازدهار للاتراك حيث أسسوا امبراطورية اسكندر تمتد من بحر إدرياتيك حتى نهر كنج وخليج البنغال ومن شمال روسيا حتى بلاد العرب وفى قارة أفريقا حتى الصحراء» .

وفى الحق أن هذا العصر لم يكن له مثيل فى جميع العصور التى مرت على الدول التركية الاسلامية ، يستوى فى ذلك التفوق السياسى والمقدرة العسكرية والثروة الاقتصادية والنهضات الادبية والصناعية والعلمية . وقد تلألأ فى سماء هذا العصر كواكب مشرقة من الشخصيات الفذة الممتازة أعنى أولئك العظماء والعباقرة الذين هم مفاخر الأتراك على الدهر كله فمنهم السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانونى والسلطان محمد ظهير الدين بابر والسلطان جلال الدين اكبر ، والسلطان أبو الفتح محمد شايباق خان . والسلطان عبيد الله خان ، والسلطان عبدالرشيد خان ، ، ، كان هؤلاء السلاطين العظام خير عنوان لمجد الأمة وعزتها لا فى الملك والسياسة والكفاءة العسكرية

فحسب بل كانوا السابقين فى حلبة البيان ، والبارزين فى ميدان الشعر والنثر ولا زالت مآثرهم الأدبية الخالدة منقوشة على جبهة التاريخ بأحرف ذهبية لا تمحى . هاهى سيرة بابر (بابر نامه) ودواوين الملوك الآخرين تناجينا بعبقريتهم الخالدة وأفكارهم السامية . ولم يكن التفوق قاصرا على الملوك فقد كان ثمة عظماء وأبطال غيرهم مثل على شيرنوايي وفضولى من صفوة أعلام الأدب التركى ، وسنان باشا من خيرة رجال المعمار ، وطرغود ، وخير الدين بربروس من أبطال البحرية البارزين وفى هذا العصر تربع الأتراك على عرش الخلافة الاسلامية (١٥١٧) ورفعوا لواءها . وأصبحوا زعماء الأمم الاسلامية وقادة العالم الاسلامى والتفت حولهم قلوب المسلمين فكانوا معقد رجائهم ، وقبلة أمانيهم ، وقد أحاطوا أشخاص السلاطين بالحب والاكبار فتوحدت الكلمة بعد شقاق ، واجتمعت القلوب بعد افتراق تستطيع أن تقول إنها أكبر ظاهرة فى تاريخ هذا العصر وتلك الخلافه الاسلامية التى كان نفوذ الدولى بل كان المسلمون يدينون لهم بالطاعة مخلصين ويتسابقون إلى حبهم مختارين .



بوادر الضعف

أصاب الأمة التركية فى تركستان ما يصيب الأمم القوية عند ما تتسع ثروتها ، وتعظم دولتها ، فيعمد كبراؤها الى الترف ، والتماس أسباب النعيم ، فيتركون حياة التقشف ، ويستمرءون ملاذ الحياة وأطايب العيش ، وقد جرت هذه السنة على الأتراك فخدعتهم بهارج الدنيا ، ومالوا مع حكم الشهوات فهاموا باللذات هياماً ، وأصبحوا كأصحاب الكهف نياماً ، فذهب ريحهم وأسرعت اليهم بواعث الدمار ، وأسباب الانحلال . وقد بدأت عوامل الضعف منذ القرن السادس عشر نفسه . وكانت الظاهرة الأولى من اضمحلالهم أن الدولة القازانية انعكست آيتها ، وقلب لها الزمان ظهر المجن سنة ١٥٥٦م فبعد أن كانت تحكم على روسيا ، أصبحت هى تابعة لها . وهكذا شاءت الأقدار أن يصبحو مقودين بعد أن كانوا قادة ، ومسودين بعد أن كانوا سادة .

ومنذ ذلك الحين بدأ الروس يعدون العدة لتمكين دولتهم . وبسط سلطتهم ، وتوجهوا بوحشيتهم البربرية ، وتقدموا زاحفين صوب الشرق ، لاخضاع تلك البلاد الاسلامية الشاسعة ، والقضاء على أبنائها الآمنين المطمئنين ، فقد استولوا على الواحدة تلو الأخرى من هذه المملكة الاسلامية الشاسعة حتى وصلوا الى أقصى حدود تركستان الكبيرة .

وما كان للروس ولا لغيرهم أن تدنس أقدامهم أرض هذه البلاد الاسلامية لولم يكن التركستانيون قد دبت اليهم عوامل الشقاق وبوادر النفاق ، وانعدمت من بينهم كل معانى الألفة والوفاق ، وانفصلت كل ولاية عن غيرها . وقامت كل منها تعلن استقلالها ، فتمزقت روحها المعنوية ، وجامعتها القومية ، فبذلك وجد الروس منفذا الى تلك الأمة كلها . وكانت التركستان إذ ذاك مقسمة الى الدويلات الآتية : (١) الدولة الأزبكية بما وراء النهر . (٢) دولة بنى يادكار بخوارزم . (٣) دولة بنى بك قوندى فى الشمال الغربى وسيبريا وتسمى هذه الدولة خانات سيبريا أيضا . (٤) دولة أمراء مانغيت ـ نوغاى فى غربى ولاية قازاغستان وتمد من بحيرة «بالقاش» الى نهر «ايديل» (٥) دولة سلاطين قازاق فى الشمال الشرقى لقازاغستان (٦) دولة بنى چغتاى (دوغلات) فى تركستان الشرقية (٧) وولاية يتى صو .

ما كاد الروس يشعرون بتصدع ذلك البناء العظيم ، وانقسام الكتلة التركستانية الى مزق وأشلاء فى شكل دويلات وممالك حتى مدوا مخالب النسور وأنياب الذئاب الضارية لابتلاع ذلك الملك الشاسع ، وهدم ذلك البنيان الراسخ الذى بقى على الزمان قوياً لم تنل منه العواصف الذاريات ، والحوادث القاسيات . ولم تستطع الدول شرقيها وغربيها قديمها وحديثها أن تنال من

أركانه أو تدنو من سكانه ، انتهزوا فرصة هذا الانقسام ، ووجهوا همهم الى هدم ذلك الركن من صرح الاسلام ، وتقدموا بقضهم وقضيضهم وأغاروا أول الأمر على دولة بنى بلك قوندى ـ التى كانت تحكم سيبريا والشمال الغربى من تركستان فاستعد الملك «كوچم خان» الدفاع عن بلاده والزود عن كيانه ، فجمع الأجناد من أقطار مملكة وأقام استحكامات على سواحل نهر «ايرتيش» تحت جبل «چواش» وولى أحد أقاربه ، محمد قل قيادة الجيش العامة لمحاربة الروس ومعه كثيرون من الفرسان فوقع أول القتال بين الفريقين قريبا من نهر «إيرتيش» واستعرت نار هذه الحرب حين تلاقى الجيشان .

وأبدى جيش «محمد قل» من ضروب البسالة والاقدام ما هو معروف ومشهور فى طبيعة الاتراك . ولكن الروس كانوا قد أمطروا الموقعة بألوف مؤلفة من الجنود فاستطاعوا أن يفوزوا فى هذه المعركة ، ثم وقعت المعركة الثانية على نهر «ايرتيش» واشتد الأمر هناك فخرج كوچم خان من الاستحكام ، وصعد فوق جبل «جواش» يراقب الحالة بنفسه . وفوض أمر الاستحكام الى «محمد قل» واستولى الروس على بلدة «آتيق ميرزا» بعد موقعة سالت فيها دماؤهم أنهارا وجرح منهم من لا يحصى عدداً . ثم وثب الروس على الاستحكام الذى أقامه كوچم خان وبلغت

الحرب أشدها فجرح الأمير محمد قل فى تلك الأثناء فحملوه إلى الضفة الثانية من نهر «ايرتيش» وعلى أثر ذلك استولى الروس على الاستكام . فمضى كوجم خان الى برية «ايشيم» حاملا معه خزائنه ونفائس أمواله ، وجواهره . وفتح الروس هذه البلاد الواحدة تلو الأخرى واستولوا بعد حروب تشيب لهولها الوالدان وضحايا تسير بذكرها الركبان على مدينة (ايسكر) التى كانت عاصمة كوجم خان فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٥٨١م واستولوا على كنوز من الجواهر الغالية والتحف النفيسة والأموال التى تفوق الاحصاء ثم لم يزالوا يحاربون ويقاتلون وقد لقيهم أهل البلاد بضروب من الدفاع والاستبسال . والثبات فى مواقف النضال والتضحية التى صارت مضرب الامثال فى الدفاع عن الأوطان والزود عن شرف الأمة وكرامتها ، وأخيرا أسر الأمير محمد قل وحمل الى «موسكو» وتولى كوجم خان القيادة العامة بنفسه وأظهر شجاعة وافرة وبسالة نادرة للنضال عن حياضه واسترداد مجد بلاده حتى الموت ، وقد مثل المؤرخ الانجليزى «هوورث» فى تاريخ كوجم خان دفاع أبطال الأتراك ووقوفهم وقفة الاسود الغاضبة ضد عدوهم المستبد الجبار بموقف الهنود الحمر ضد مستعمرى بلادهم .

ويدل على صدق وطنية «كوجم خان» وعزة نفسه جوابه الموجه الى سفير الروس رداً على دعوته إلى قبول العيش فى ظل

الحماية الروسية حينما رآه يمشى هائما على وجهه مع بعض حاشيته وأجناده فى الصحراء بين القتلى وقد فقد إحدى عينيه وهكذا أجاب : "إنى لا أقبل عيش الأسير ولا موت الذليل . ولا أحزن لفقد أموالى وانما الجدير لحزنى وألمى هم أولئك التعساء الذين يعيشون تحت نير الطغيان الروسى» .

واستمرت الحرب بين الروس والأتراك فى هذه المنطقة وحدها أكثر من نصف قرن وتجلى صدق قتيبه بن مسلم الباهلى البطل الاسلامى حيث يقول (إن التركى أحن إلى وطنه من الابل إلى معاطنها) ، ولم تنقطع الحرب بوفاة (كوجم خان) سنة ١٦٠٠م بل استمرت نارها مشتعلة على يد ابنه (على خان) الذى قاتل حتى أسر ثم انتقلت القيادة إلى أخيه (ايشيم خان) وأبدى من الشجاعة والبسالة ما يسجله التاريخ بمداد من الفخر .

وهذه الحروب المتوالية من الغارات المتتابعة والشجاعة النادرة والبسالة الوافرة قد أتعبت الروس فبدأوا ينهزمون فى كل المعارك والميادين وطفق الأتراك يطاردونهم فنكسوا على أعقابهم وولوا الأدبار ولكن ذلك النصر فى الشمال الغربى لم يتم لهم فى ذلك الحين . فقد أخذت طائفة (قاوق) تطرق أبواب تركستان من الشمال الشرقى وتجتاحها . وأقبلوا على البلاد من الشرق كسيل من الدمار ، فوقف هذا النصر وذلك النجاح .

مع أن تركستان الشمالية كانت بين نارين يستعر لهيبها غرباً من الحرب الروسية وشرقا من قبائل قلموق فقد كان النزاع الداخلى يفتك بالتركستان الجنوبية ، وعلى أثر هذا انتقلت حكومة ماوراء النهر من أسرة الأزابكة إلى أسرة الاستر خانيين ، وهم إن لم يتحدوا فيما بينهم لكنهم دافعوا الأعداء عن ديارهم ، وبذلوا المهج والأرواح للمحافظة على أوطانهم فلقد قاتلوا وأظهروا شجاعة فائقة أمام غارة القلامقة الذين جاءوا من شرقى آسيا ، كما أظهروا بسالة كبرى أمام غارة الروس الذين جاءوا من شرقى أوربا . وأصبحت تركستان طوال القرن السابع عشر الميلادى مجال حروب وميدان منازعات إذ كانوا يناضلون عدوين قويين من الشرق والغرب فى وقت واحد ، ومع هذا فقد كان النزاع فى تركستان الشرقية قويا بين الأسرة المالكة والعلماء ، فقد انتقل زمام الملك من أيدى آل جغتاى إلى أسرة مخدوم أعظم - زعيم العلماء .

ومما يستوجب الرثاء أن انضم إلى تلك المصائب الفادحة والأخطار الجسام مصيبة جديدة من الجنوب فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أعنى إغارة الفرس بقيادة نادر شاه وقد اجتاحوا البلاد واقتحموها وبذلك استهدفت تركستان لجميع الأخطار من جميع الجهات ، وقد دافع كل من أمراء تركستان بنفسه وبجنوده ولم يتحدوا فيما بينهم لتكوين جبهة قوية إلا أن

اجتياح الفرس لم يكن طويل الأمد بل كان سريعا كالزلزال أو البركان غير أنه ترك أثراً سيئاً فقد زاد البلاد تمزقا وتفرقا وانحلالا ، وانتقل الحكم من أيدى الأمراء إلى أيدى رؤساء العشائر فكثر عدد الحكومات وقل عدد المحكومين ، وانتقل حكم ماوراء النهر من أيدى الاسترخانيين إلى أمراء مانغيت ، ولما رأى الروس أن الخطر الجنوبى قد زال بوفاة نادر شاه سنة ١٧٤٧م وأن القلموق أيضا قد انهزموا أمام الحرب الصينية التى أشعلها الصين عليهم سقط فى أيديهم ووقع الرعب فى نفوسهم فبدأوا يحصنون المواقع ، ويبنون القلاع فى المواطن التى احتلوها من أراضى تركستان ، وبدأ التركستانيون كذلك يعدون العدة ويتجهزن لحرب يجلون بها العدو الغربى الروسى عن ديارهم ، ولكن جيراننا من الشرق (أعنى الصينيين) ما كادوا ينتهون من محاربة القلموق ورأوا التركستانيين يقاتلون الروس فى الغرب وهم ماعدا ذلك غير متحدى الكلمة انتهزوا الفرصة وأغاروا على التركستان الشرقية ، ومع أن الحرب تمددت فى الشرق والغرب مرة أخرى ووقف الأتراك بين نارين مشبوبتين فقد ثبتوا فى مواضعهم ، ووقفوا ضد العدوين بما عرف عنهم من بسالة واقدام وكانت الحرب سجالا بينهم وبين العدوين معاً .

ولما بسط الانجليز حكمهم على الهند وحاربوا الأفغان سنة ١٨٣٩م بدأوا يهددون إمارة بلخ وإمارة قوندوز وبقية

الأمارات الجنوبية من تركستان وبهذا نرى أن المصائب السابقة قد زادت شيئاً آخر وهو التهديد الانجليزى الجديد .

بعد هذا استطاع الروس أن يوجهوا حملتهم فى جد ويسيرون بخطوات سريعة حتى وصلوا إلى الحوض الأوسط لنهر سيحون .

وكانت تركستان إذ ذاك منقسمة إلى ثلاثة أقسام أصلية وهى إمارات (خوقند) ، و (بخارى) و (خوارزم) و (خيوه) . بخلاف حكومات قبائل التركمان التابعة اسما إلى إمارة خيوة .

امارة خوقند : ابتدأ الروس زحفهم أولا على إمارة خوقند وأغاروا على (آق مسجد) فاستمرت الحرب بين الطرفين سجالا إلى أواخر سنة ١٨١٣م وفى ٢٧ ديسمبر من تلك السنة استولى الجنرال (پيروفسكى) على مدينة آق مسجد ومحا اسمها وسماها باسمه .

وفى شهر مارس سنة ١٨٥٨م قامت فصائل خوقند تحت قيادة الوالى يعقوب بك (هو ملك تركستان الشرقية فيما بعد) بحملة عنيفة على قوات الروس ، وأظهروا شجاعة وافرة تعد من معجزات يعقوب بك ونهبوا ما يقرب من مائة قرية وهزموا الجنود الروسية شر هزيمة ، وصد خلف يعقوب باك المسمى (باتيرباش) الهجوم الذى قام به الكولونيل الروسى (بلارامبرج)

في يوليه من ذلك العام ، وتقدمت حماة العام الثاني التي كان يقودها الجنرال پيروفسكي (الكونت پيروفسكي فيما بعد) ، في حذر وبطء شديد أدى إلى بذل الكثير من الأرواح بلا جدوى وكانت حامية (آق مسجد) تتألف من خمسمائة رجل وثلاثة مدافع وقد قتل الوالي (محمد علي) والجزء الأكبر من الحامية في دفاعهم عن هذا الحصن ، ولم يأسر الروس سوى أربع وسبعين أسيراً معظمهم من الجرحى .

وصد الروس الجيش المرسل من خوقند بقيادة البكباشي قاسم بك لاستعادة هذا الحصن بعد أن تكبد خسارة جسيمة .

وفي سنة ١٨٦١م استولى الروس على قلعة «يكي قورغان» وفي سنة ١٨٦٤م احتلوا مدينة «يسه (المشهورة بمدينة تركستان)» وعلى مدينة «أوليا آتا» وفي سبتمبر من السنة المذكورة استولوا على «چيمكند» واستطاعوا أن يحاصروا مدينة «تاشكند» من أكبر مدن تركستان بعد حروب دامية ، ومقاومة عنيفة بقيادة الجنرال (تشرنايف) واستطاع الأتراك أيضا أن يردوا الروس على أعقابهم بعد تضحيات عظيمة بقيادة البطل الأمير «عليمقول» القائد العام لقوات إمارة خوقند .

ثم استعد الروس مرة ثانية لمحاصرة «تاشكند» فتقدموا واستولوا على قلعة «نيازبك» التي تبعد عن تاشكند ٣٥ ميلا

تقريبا من الشمال الشرق (٢٩ ابريل سنة ١٨٦٥م) وقطعوا مياه الجداول والأنهار التى تسقى أهل المدينة وبدأت عوامل الظمأ وما يتبعه تؤثر فى حياة الناس . ورغم ما بهم من العطش وشدة الحاجة إلى الماء فقد ثبتوا فى مواقفهم ، ثم استطاع الروس أن يتقدموا ثمانية أميال ودافع الأتراك عن كل شبر من أرضهم دفاع الأبطال الأقوياء ، وقاد الحملة البطل العظيم الأمير «عليمقول» وباشر بنفسه قيادة المدفعية ولكنه مع الأسف استشهد فى سبيل الله والوطن فى ٩ من شهر مايو سنة ١٨٦٥م ثم استولى الروس على قلعة «زنكى آتا» فدب الحزن واليأس فى قلوب المسلمين بعد استشهاد هذا البطل الصنديد والقائد الأروع ، وبذلك تمكنت الروس من محاصرة «تاشكند» حتى دخلوها ، وإن الأتراك رغم هذه الفاجعة الأليمة ورغم ما بهم من العطش والجوع لم يتخاذلوا ولم يسلموا للروس أنفسهم طائعين بل صمدوا صمود الجبال الشماء فى وجوه العواصف لا يتزحزحون ولا يستسلمون بل أداروا المعركة بالحراب والمدى فى طرقات تاشكند وبين أزقتها ودربها ، ولندع القائد الروسى الجنرال «تشرنايف» فاتح تاشكند يحدثنا بنفسه عما شاهده بعينه فى الموقعة قال «إن المدينة كانت مستعدة باكسياس الرمال (Barrikade) فى كل شوارعها ، وكانت المقاومة عنيفة جداً ، وقدمات كثير من الناس وهم يهاجمون جماعات أو منفردين بشوارع المدينة يناضلون بنفوسهم

وسعاولهم ، ولم يستسلموا بل ماتوا على أسنة الرماح ورأى جنودنا الروس الذين اجتازوا الشوارع مقاومة عنيفة ومقاتلة شديدة ولم نبسط أيدينا على مجتمع أو ناد إلا بعد أن سبحت جنودنا فى بحار من الدماء" هذا هو قول عدونا اللدود الجنرال «تشرنايف» وهذا يدل على بطولة الأتراك ومقاومتهم للعدو دفاعهم عن الدين والوطن . وبذلك سقطت تاشكند فى أنياب الروس وتم استيلاؤهم على نصف إمارة خوقند واضطر خدا يار خان أميرها أن يدخل فى حماية الروس ، ولما ضايقت روسيا إمارة خوقند وقربت ساعة الاجهاز على استقلالها فطن الأمير مظفر الدين خان أمير بخارى إلى عاقبة تاخره عن مساعدة مجاوريه على صد هجمات الأعداء فتحرك لمساعدتهم ومد يد المعونة اليهم وجمع جيشا جرارا لمحاربة الروس ولكن مساعدته أتت بعد فوات الوقت المناسب واضمحلال قوى خوقند ورسوخ قدم الروس فى بلادهم واستعدادهم استعداداً هائلا وجمعهم الجيوش المنظمة التى تحمل السلاح من أتقن طراز وتصحبها المدافع المهلكة لذلك لم يصعب عليهم الانتصار على الجيش التركى رغما عما أبداه البخاريون الأتراك من المقاومه والاستماتة فى الدفاع لكن لم تجدهم بسالتهم الشخصية شيئاً أمام مقذوفات الروس .



إمارة بخارى

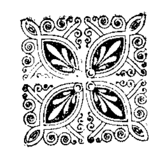
ثم بدأ الروس يتحرشون بامارة بخارى لاخضاعها ، والتهام ما يطيب لهم من الأقاليم فادعوا على أمير بخارى بان أحد قواده أعلن الحرب على الروسيا وساقوا لمحاربته ثمانية آلاف جندى رغماً عن انكار الأمير لما أتاه قائده . وبعد أن أخذوا جنود الأمير على غرة وهزموهم بالقرب من نهر زرفشان دخلوا مدينة سمرقند عنوة ١٤ مايو ١٨٦٨م بعد أن حاصروها ثلاثة أيام . وفى نفس ذلك اليوم استولى الجنرال «جولوفاتشف» على مدينة «كاتتا قورغان» وكان قد أرسل اليها مع خمسة آلاف جندى وثمان أورط من عساكر القوزاق بثمانية مدافع ، وبعد ذلك ترك الجنرال «كاوفمان» المرضى والجرحى من جنوده فى قلعة «سمرقند» مع حامية قليلة وسار بجيشه الجرار لمحاربة الجيش البخارى فلحقه بالقرب من مدينة «صارى پول» وهزمه ثم قصد مدينة بخارى للاستيلاء عليها لكن وصله فى طريقه قيام سكان سمرقند على من كان بها من الجنود وحصرهم الروس فى القلعة والتضييق عليهم فعاد مسرعا وفرق جموعهم وفك الحصار عن القلعة بعد ستة أيام كان الحرب فيها سجالا ثم أباح المدينة لجنوده ثلاثة أيام ارتكبوا فى خلالها من القتل والنهب وجميع الفظائع

الوحشية ما يسود وجه تاريخهم ويشوه ما ينسبونه لأنفسهم من المدنية .

ولما أيقن أمير بخارى أن لا قبل له بمحاربة الروس وإنه لو استمر على مكافحتهم فهم لا شك فائزون مهما بذله هو وجنوده من الأموال والأرواح ما دامت الأمم الاسلامية الأخرى لاهية كل واحدة بنفسها فأرسل للجنرال «كاوفمان» يطلب منه الصلح فدارت بينهما المخابرات وأخيراً اتفقا على أن يدفع الأمير للروسيا غرامة حربية توازى اثنين وسبعين الف جنيه وأن يتنازل لها عن ولايتى سمرقند وكانتا قوغان ويبقى مستقلا بما بقى له وأن يلقب بحليف الروسيا ويعين بمعيته مندوب روسى يبذل له النصح فى إدارة شئون بلاده الداخلية وأن لا يخابر أى دولة أخرى إلا بواسطة هذا المندوب التابع إدارياً إلى حاكم تركستان الروسى وأبرموا معه معاهدة تجارية تقضى باباحة التجارة لجميع رعايا الروسيا فى إمارة بخارى وبأن يكون لهم رئيس (شهبندر) من بينهم فى كل مدينة أو قرية مهمة وبأن لا تزيد قيمة الكمرك على الواردات اليها من بلاد الروس فى حالة من الأحوال عن ٢٫٥ ٪ من قيمة البضائع المراد إدخالها وبذلك تم ضياع إمارة بخارى ولم يبق لأميرها من السلطة إلا اسمها ، ولكن الأمير عبدالملك ولى عهد بخارى لم يقبل هذا

الاستسلام وثار على أبيه لقبوله حماية الروس وحارب في صفوف المجاهدين دفاعا عن شرف آبائه وأجداده الأتراك .

ثم اتجه الروس إلى تركستان الشرقية وقضوا على إمارة «ايلى» بعد ان رأوا ضروباً من الدفاع والاستبسال وثباتاً في مواقف النضال من أميرها السلطان «أبي العلاء خداقل خان» وأخيه الأمير شمس الدين سنة ١٨٧١ .



الغاء امارة خوقند

وفى تلك الأثناء قام الأتراك بثورة عنيفة على الأمير خدا يار خان أمير خوقند لقبوله حماية الروس وهزموا جيوشه وأسروا ولده ناصر الدين ثم دخلوا مدينة «مرغينان» وألزموا مراد بك أخا الأمير بالأنضمام اليهم فخرج الأمير بنفسه لمحاربتهم ومعه سفير الروسيا وجنوده من القوزاق ولما اقترب من الثائرين انضم جيشه اليهم فلجأ إلى الفرار تحت حماية عساكر القوزاق إلى تاشكند فأقام الثوار ولده ناصر الدين أميراً مكانه ولكن الروس هاجموا بقضهم وقضيضهم وانتصروا عليهم فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٥ واستولوا بعد ذلك على خوقند نفسها ومدينة «مرغينان» وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٧٥ أمضى الجنرال «كاوفمان» مع الأمير ناصر الدين خان معاهدة تنازل بمقتضاها للروسيا عن جميع البلاد الواقعة على الشاطىء الأيمن لنهر سيحون وبقى ناصر الدين حاكما على ما بقى من ولايته على الشاطىء الأيسر، لكن لم يمهله الروس إلا بضعة شهور ثم عزلوه فى شهر يناير سنة ١٨٧٦م ونفى هو ووالده خدا يار إلى الروسيا بعيداً عن كل علاقة مع بلاده العزيزة ثم ألغوا إمارة خوقند وجعلوها ولاية روسية .

امارة خيوه

ثم اتجهوا للاستيلاء على إمارة خيوه (خوارزم) ولكن ستمائة فارس من فرسان الأتراك هاجموهم فى حوالى «قزيل صو» وانقضوا عليهم كصاعقة من السماء ولم يستطع الروس أن يفروا وقتل كثير منهم وأسر قائدهم «اسكوبلوف» ولكنه نجا فيها بعد . ثم تقدم الروس مرة أخرى سنة ١٨٧٦م إلى «قزيل أروات» بقيادة قائدهم الجنرال «لاماتكين» وردهم الاتراك حتى (قزيل صو) . إلا أن هذه الهزائم كلها لم تقعد همة الروس بل أرسلوا اليها جيشاً آخر مؤلفا من ستين أورطة من المشاة و ٢٦ من السوارى و ٥٦ مدفعاً فقسمها الى ثلاث فرق سافرت احداها من مدينة (أورنبورغ) قاصده خيوه من جهة الشمال الغربى والثانية من بلاد القوقاز اجتازت بحر الخزر وسارت شرقاً إلى خيوه مخترقة صحارى (قاراقوم) وأتت الثالثة على مدينة (جيزاق) بين سمرقند وتاشكند متجهة إلى الشمال الغربى . ولقد قاست هذه الفرق الثلاث فى سيرها من آلام التعب والعطش . كاد يذهب بحياتها وتركت أغلب مهماتها فى الرمال بسبب موت الجمال وباقى دواب الحمل إلا أنها استمرت فى طريقها رغما عن هذه الصعوبات وما لاقته أيضا من مناوشات التركستانيين من أبناء قبائل تركمان حتى وصلت إلى أسوار مدينة خيوه نفسها . وفى ٢٨ مايو أطلقت عليها

المدافع من كل صوب حتى أذعن أميرها إلى التسليم بعد أن فقد معظم جيوشه ويئس من الخلاص فأرسل إلى الجنرال (كاوفهان) القائد العام يطلب الصلح ، وبعد مداولات تم الصلح بينهما على كيفية تجعل هذه الامارة أيالة روسية يحكمها أميرها الأصلى بناء على نصائح أو أوامر الحاكم الروسى العام المقيم فى تاشكند .



سقوط تركمانستان

وبعد هذه الحروب عزم الروس على إنشاء طريق حديدى بين بحر قزوين ، والامارات المفتتحة حديثاً ، وعلى إخضاع البقية الباقية من تركستان فتقدم إلى مقاطعة «تركمانستان» سنة ١٨٧٧ وكان فيها رئيس مستقل لكل قبيلة واتحدوا فيما بينهم ، وانتخبوا «نور ويردى خان» رئيساً لهم ، واستقر الأمر على أن يدافعوا عن بلادهم واستحكموا فى «دنكيل تبه» وكانت الجنود الروسية مؤلفة من عشرة فرق من المشاة وأربعة عشر مفرزة من الفرسان وستة عشر من المدفعية ومن عدة قطعات فنية أخرى ومن غيرها ، وبدأت الحرب على أشدها فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨م وقتل الأتراك ثلث جنود الروس فى مدة نصف ساعة ، وتشتت الروس وتفرق شملهم وذهب ريحهم ، ولكن التركستانيين لم يشعروا بهزيمة الروس ولم يستمروا فى هجومهم لاصابة قائدهم (بيردى مراد خان) وهرب الروس فى ظلمة الليل تاركين جريحهم وبعض أشيائهم كحمر مستنفرة فرت من قسورة ، وتعقبهم الأتراك حتى النساء والأطفال ، وكان المتقدمون من الروس الفارين يضربون إخوانهم المتأخرين عنهم فى القرار ويرمون النار اليهم ظنا منهم أنهم من جنود الأتراك الذين يتتبعونهم .

وأحدث هذا النصر المبين روحاً جديداً في قلوب الأتراك
واشتهر فيما بينهم هذا النصر العزيز وثار بعض البلدان وتحرر
من نير الروس وبدأوا يغيرون على بلدان محتلة أخرى ، ولقد
الروس في هزيمة منكرة زجت بها أرجاء البلاد وكان القضاء على
هؤلاء الروسيين محققا وطردهم من البلاد أمراً محتوماً لو لم
يستطيعوا الاستيلاء على تلك المقاطعات ، فعلى هذا استعد الروس
مدة ثلاث سنوات وشمروا وحشدوا المهمات الحربية والزاد
والعتاد مدة ستة شهور في قصبة «باسى» التي تبلغ مسافة ٢٧٠
كيلومتراً من «قزيل صو» وأنشاوا عدة قلاع واستحكامات بين قزيل صو
وباسى وجمعوا فيها المهمات الحربية وانشأوا سكة الحديد من
قديل صو وصار الجنرال «غوروديكوف» رئيسا لأركان الحربية
الروسية والتحق الجنرال «قوراپاتكين» مارا بصحراء خيوه مع
٩٠٠ جندى إلى الجنرال «اسكوباوف» الذى جعل قاعدته
العسكرية في «باسى» واستقر الجنرال «اسكوبلوف» مع سبعة آلاف
جندى في «ايكه ن باطر قلعه» بعد اشغالها ، وكان الأتراك
مستعدين للحرب وانتخبوا «تيقما سردار» رئيساً بعد وفاة رئيسهم
«نور ويروى خان» وكان الرئيس الجديد قائداً باسلا وقد اشترك
في الحرب حين كان عمره ثلاثة عشر سنة ، ونجا بعد أن أسره
مرة في أيدى الايرانيين . واستعد البطل الرئيس الجديد واستحكم
في «دنكيل تپه» وكان محاطاً بسور يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار وخنادق

عميقة ، وكان فيها مدفع من النحاس وثلاث مدافع قديمة غيره ، وثلاثين الف جندى ، ولكن لم يكن معه سوى خمسة آلاف بندقية أكثرها قديم العهد ومع هذا كان الروس يخافون منهم جداً ، ودربوا عساكرهم تدريباً فنياً ، وأخيرا بدأوا بمحاصرة «دنكيل تپه» وشتت الأتراك بقيادة محافظة القلعة «كول باتير» فرقة الجنرال «تير سه ويج» الذى أراد أن يحاصر قلعة صغيرة كانت خارج «دنكيل تپه» وقتلوا قائدهم الروسى (تيرسه ويج) وكانت الجنود الروسية تحارب بالمدافع والأتراك يهاجمون فى الليل ويشمرون ويحاربون بالسيوف ولا يستعملون البنادق ، واشترك الصبيان والنساء فى الحرب وأظهروا شجاعة وافرة لا ينساها التاريخ .

وأغار القائد «تيقما سردار» مع ٤٠٠٠ جندى تركى على الجنود الروسية التى كانت تحت قيادة «قوراپاتكين» وغنم الأتراك فى هذه الاغارة علم الفرقه الرابعة وثمانية مدافع ، وتقدموا إلى معسكر الجنرال «لسكوبلوف» وغنموا كثيراً من المهمات الحربية ، وكذلك نجحوا فى كل إغارتهم وغنموا لكنهم كانوا أكثر تضحية . ولم ينجح الروس فى تدمير القلعة بالمدافع ولم يصلوا إلى نتيجة لأن الأتراك كانوا يرممون ما تهدم من الحصن تحت الأرض ، وبهذه الوسيلة أمكنهم فتح ثغرات عديدة فى الحصن

و (١٢ يناير ١٨٨١) دخل الروس إلى الحصن بقيادة قوادهم (قوراپاتكين) و (كازيلوف) و (غابداروف) ودافع الأتراك عن الحصن شبرا بشبر دفاع الأبطال ، ولكن اضطروا أخيراً إلى الانسحاب مع قوادهم (تيقماسردار) و (مخدوم علي خان) و (مراد خان) إلى حوضة (تيجان) وفى مارس من تلك السنة استولى الروس على مدينة (عشق آباد) وجعلوها قاعدة حربية ، وفى فبراير سنة ١٨٨٤ استولو على مدينة مرو بقيادة الجنرال (كوماروف) وفى شهر ابريل من تلك السنة احتلوا مدينة سرخس وبذلك تم للروس فتح تركستان بعد حروب متطاولة دامت ثلاثة قرون وأكثر ١٥٨١ - ١٨٨٤م .



تركستان الشرقية

وأما التركستان الشرقية فكانت أحد أقسام الامبراطورية التيمورية الكبرى ، ولما تفرقت أجزاء الامبراطورية استقل أمراء «جغتاى» بالبلاد وكانت عاصمتهم «كاشغر» أو «آقصو» فى بعض الاحيان ، وفى عهد أمراء جغتاى تقدمت العلوم والفنون والصناعات وسادت الروح الدينية كما ازداد نفوذ العلماء وبدأوا يتدخلون فى شئون الدولة وسياستها ، وسنذ ذلك الحين بدأ نفوذ الامراء يتضاءل حتى ضعفت سلطة الخواقين وتحللت قواهم .

وفى العهد الاخير ظهر على مسرح السياسة اسم «مخدوم أعظم» رئيس الفقهاء وكبير العلماء فى تركستان الشرقية وكثر أتباعه ، حتى كاد نفوذه يطغى على نفوذ الخاقان فى ميدان السياسة والرياسة ، وكان له ابنان : خوجه اسحاق ولى وخوجه محمد أمين واشتهر لقب الأخير بامام كلان (الامام الكبير) فوقع بينهما بعد أبيهما نزاع سياسى حول وراثة المكانة التى كانت لابيهما فاستنجد كل منهما بمن انضم اليه من العشائر والاتباع . ونشأ عن ذلك قيام حزبين فسمى حزب اسحاق (قاراطاغلق) كما أطلق على الحزب الآخر اسم (آقطاغلق) وامتد النزاع بينهما إلى أن قدم ، آپپاق خوجم (هداية الله خان) من سمرقند . وهو من

أحفاد مخدوم أعظم ، وتولى بنفسه زعامة حزب آقطاغلق ولعب دوراً سياسياً هاماً فاضطر الملك اسماعيل خان إلى إقصائه من البلاد (٩٠٧هـ) . واستنجد آپپاق خوجم بنفوذ «دالاى لاما» الخامس حاكم التبت الكهنوتى فكتب بدوره إلى «غولدان قونتاجى» رئيس القلامقة فى «ايلى» يوصيه بمساعدته فقبل التوصية وأرسل جيشاً تحت قيادة آپپاق خوجم . فنازل به الملك اسماعيل خان وتغلب عليه وقامت فى تركستان حكومة العلماء (خوجوات) سنة (١٦٨٧م) .

وعلى أثر قيامها اندلعت نار الحروب الداخلية بين الحزبين من جهة وبينها وبين القلامقة من جهة أخرى وأتاحت هذه الحروب والانقسامات الاهلية فرصة سانحة للصينيين ، وإذ ذاك أرسلت الحكومة الصينية جيشا كبيرا فى أواسط القرن الثامن عشر الميلادى لغزو تركستان ، وقد قاومهم الاتراك مقاومة الابطال إلا أن الجيوش الصينية تغلبت بوفرة عددها . وفى سنة ١٧٥٧م تم احتلال الجزء الشمالى من تركستان الشرقية بقيادة قائدهم «جى - زاو - خوى» . وقضوا على حياة مليون من السكان ثم بدأوا زحفهم إلى الجنوب . أما الاتراك فقد بذلوا كل جهد فى المقاومة والاستبسال والدفاع عن كل شبر من أرض بلادهم غير أن الصينيين كان عددهم أكبر من أن يحصى

فتقدموا على جثث القتلى إلى أن بلغوا «كوچار» وحاصروا المدينة فوثب عليهم المسلمون وثبة الاسود ، وهجموا عليهم هجوم السيل من كل مكان حتى اضطروهم إلى ترك الحصار فولوا الادبار . ولما وصل نبأ هزيمتهم إلى القيادة الصينية العامة فى «ابلى» أرسلت هذه القيادة إمداداً وافراً لمعونتهم وعادوا إلى مهاجمة «كوجار» مرة أخرى ، فسار برهان الدين خان ملك تركستان وشقيقه الامير جهان خان اليهم فى عشرة آلاف من الجنود لانقاذ المدينة وأهلها . غير أن الصينيين كانوا قد سبقوهم إلى فتحها ، وأعلن قائد الحملة الصينية القتل العام ، وذهبت فى ذلك القتل حياة عشرة آلاف من الابرياء بصورة وحشية يندى لها جبين التاريخ .

أما جلالة الملك برهان الدين خان فقد انسحب إلى «ياركند» لاعداد الجيوش وتنظيمها لحرب أخرى كما مضى الأمير جهان خان إلى «ختن» لحشد الأجناد وسباعدة أخيه الملك للدفاع عن الوطن . وعاد الصينيون للزحف وتقدموا إلى «ياركند» فاشتبكوا فى معركة دامية . وردهم الملك مدحورين وحوصر قائدهم «جى - زاو - خوى» فلم ينقذه سوى قوة صينية جديدة أرسلت لامداده ، ثم عادت القوات الصينية ورابطت فى آقصو ، واحتشدت فيها لتنظيم صفوفها ، ولم شعثها ، وجمعت

كثيرا من الذخائر والأموال والخيول والجمال . استعداداً للقتال ، وفى تلك الأثناء أقبلت عليهم الامدادات ، وتمكنوا بعد ازدياد قوتهم أن يبدأوا الهجوم على المسلمين من عدة جهات : فقامت حملة بقيادة «جى - زاو - خوى» على كاشغر وأخرى بقيادة - «فو - تاى» على ياركند واضطر الملك بعد استعار الحروب ، وازهاق الأرواح واستشهاد الأبطال للانسحاب الى «ختن» حيث كان أخوه الأمير جهان خان ينظم الكتائب ، فتبعته الجيوش الصينية والتقت بعساكر جهان خان ودارت الحرب على أشدها ، وناضل المسلمون نضال من لا يخاف الموت غير أن الصينيين تغلبوا أخيراً مما اضطر الملك برهان الدين خان إلى مغادرة البلاد فى صحبة أخيه جهان خان مع بعض الاسرة المالكة إلى بدخشان فتبعتهم وحدات صينية وألحقت بهم تضحيات جسيمة فى عدة أمكنة حتى أسر الملك وشقيقه الأمير جهان خان بعد نضال عنيف قتل فيه جميع أفراد الأسرة المالكة وكل من كان معها من الحاشية والجند ، وبينهم أربعة من أكابر الأمراء . ولم يفلت من أيدى الصينيين سوى الأمير خوجه صالح (ساريمساق خوجه) ابن الملك فقد أنقذ حياته وحياة الأسرة الملكية فى شخصه بهذا الفرار المؤقت . أما الملك وشقيقه فقد أعدم كلاهما فى كاشغر بأمر القائد الصينى العام .

وبعث الصينيون برأس الملك فى قفص من حديد إلى امبراطور الصين فى «بكين» وأمر امبراطور بعرضها على الشعب الصينى اعلانا لانتصاره على المسلمين فى تركستان . وأما رأس شقيقه الامير جهان خان فان المسلمين استطاعوا أن ينتزعوها من أيدى الاعداء وهم فى الطريق بها إلى الصين .

الاميرة «نور على نور» :

وكان للامير جهان خان زوجة بارعة الحسن يضوع منها العطر حيث سارت ، وأنى أقامت دون أن تمس طيبا من أى نوع - كما قيل عنها ذلك - حتى أطلق عليها الصينيون اسم «شانغ - پى» الملكة المعطرة ولما سمع بها امبراطور الصين أثناء الحروب قائده «جى - زاو - خوى» أن يأسرها ويرسلها فى حراسة من جيشه مع التكريم والاحترام ففعل ذلك أثناء فرار الملك وأخيه إلى «بدخشان» فلما وصلت إلى «بكين» وجدت فى قصره كل حفاوة وترحيب ولكنها عند رؤية الملك أظهرت غضبها وثورتها وتحول انشراحها وهناءتها إلى ثورة لو استحالت ناراً مادية لاحرقت القصر وما حوله ، وكذلك كانت ، نور على نور ، هادئة ساكنة لا تفارقها البشاشة والابتسام ما لم تر الامبراطور فانها عند ذلك تثور ثائرتها . وحاولت مرة أن تثب إلى صدره بالخنجر فحالت الوصيفات دون تنفيذ مأربها . فقالت لهن لقد

اعتدى على بلادى ، وتشتت أسرتى ، وقد استسلمت للموت وكرهت الحياة منذ امد بعيد ، ولكن لم أبذل نفسى إلا بثمن غال ولن أرض بغير القصاص والانتقام ، ولما قبضن الخنجر من يدها قالت : إن هذا العمل لا يجدى شيئا ولا يقدم ولا يؤخر ولا يحول دون الغاية ، فان ذهب خنجر واحد ففى قلبى خناجر كثيرة أخرى فكيف يمكن انتزاعها منى .

كان الامبراطور يطاول ويحاول وأكثر فى مجاملتها فبنى باسمها مسجدا هو من أفخم مساجد الصين حتى الان . وابتنى مدارس باسمها . وجامل مسلمى الصين من أجلها . وفى يوم من الايام خرج الامبراطور لموكب العيد فانتهزت الامبراطورة هذه الفرصة . واستدعتها الى القصر . وأمرت باغلاق الابواب جميعا . ومنع كل طارق من الدخول ولو كان الامبراطور نفسه . ثم قالت لها . ما الذى منعك من قبول زواج الملك فاجابت قائلة إنى صبرت على الاهانة والاسر ، وقطعت عشرة آلاف من الاميال ولم يقو عزيمتى على الصبر سوى الامل فى فرصة الانتقام . ولم تسنح الفرصة لانجاز ما اعتزمت عليه . وفى تلك اللحظة قتلتها الامبراطورة . ولما حضر الامبراطور من موكبه ورأى القصر مغلقاً استولى عليه الحزن والكآبه وتزايد ألمه عند مارأى الملكة التركية مضرجة بدمها . فامر بدفنها على تقاليد دفن الملكات . وبهذا تكون «نور على نور» قد قدمت أعظم مثل فى

البطولة التركية النادرة ، والوطنية الصادقة .

ثورة أوشتورفان :

وقد ظهر بعد الاحتلال الصينى بخمس سنوات أن الايمان الوطنى العميق كان فى حالة سكون ، وترقب للفرصة ، وأن الأمة لم ترضخ لهذا الاحتلال ولن تذعن لهذا الطغيان ، فشبت نار الثورة فى أوشتورفان سنة ١٨٦٥م وكان زعيم الثوره ، رحمة الله آخون المجاهد الوطنى العظيم .

فارسل القائد الصينى جيشا لتقمع الثورة فاجابهم المسلمون بحرب أبادتهم عن آخرهم وكان نجاحا باهرا للمسلمين ، أحدث الرعب فى قلوب الصينيين وزلزلت الأرض من تحتهم ، وخافوا عاقبة الأمر . فارسل القائد جنوداً لا عدد لها من الشرق والغرب . وحاصروا المدينة . ولكن المسلمين على عادتهم ثبتوا فى الدفاع وناضلوا عن المدينة بما وسعهم من عزم ويقين . ولما استحال ارسال الامداد إلى المسلمين من أى جهة ، واستمرت الحرب ثلاثة أشهر متتابعة . كان طبعيا أن تنقلب هذه الألوف المؤلفة بذخائرها وأسلحتها من الصينيين على المجاهدين من المسلمين فدخلوا المدينة . ولأول مرة يسمع تاريخ الانسانية بان جيشاً فاتحا يحكم على أهل مدينة كاملة بالقتل العام ، فيزهق أرواح من فيها من رجال ونساء وشباب وشيوخ وأطفال ويترك

بيوتها قبورا لسكانها . كذلك فعل هؤلاء . وأمروا باجلاء الأهلين من القرى المجاورة الى وادى نهر ايل .

الأمير خوجه صالح :

أما الأمير خوجه صالح بن الملك برهان الدين فانه بعد فراره من الموت فى جبال «بدخشان» أخذ منذ اليوم الأول يطوف بالقبائل والعشائر على الحدود ، ويجمع الكتائب من الشعب الثائر لوطنه المهيض الجناح حتى التف حوله الناس من كل حدب وصوب ، واصبح على قدم الاستعداد لحرب كان يمكن أن تكون ناجحة مظفرة . وفى نفس الوقت قامت ثورة أخرى بقيام كمال الدين خوجه رئيس حزب قاراطاغلق وهو من احفاد مخدوم أعظم . أيضا ، ولكن هذه الثورة أخمدت فى مهدها ، كما أن الأجل المحتوم أدرك خوجه صالح قبل أن يسير الى أعدائه ، وقبل أن يحقق ما كان يطمح اليه من دحر الجيوش الصينية واجلائها عن تركستان .

جلوس جهانكير خان على عرش تركستان :

ولقد قام من بعده ابنه البطل القائد جهانكير خان تورم (١٨٢٧م) وقاد جيوش أبيه والتقى بالصينيين فى عدة معارك حتى فل شوكتهم ، وشتت جيوشهم وتبوأ عرش أبيه وأجداده من

جديد واسلمت اليه البلاد قيادها ، وتقلد زمام الحكم . إلا أن الصينيين لم تخب نارهم ، ولم تسكن احقادهم ، فعادوا لاثارة الحروب مرة أخرى بعد سنتين من حكمه ، وفى إحدى المعارك عمد الصينيون إلى الحيلة والاغتيال . فتربصوا بالملك القائد وترصدوا له وهو فى عزلة من حرسه ورجاله ، ووثبوا عليه وهو نائم ، فأيقظوه أسيرا ، وحملوه الى الصين حيا مكبلا بالحديد فى قفص محكم كنسر محبوس ، وهنالك قطعوا لسانه وأحضروه الى الامبراطور فأمر بذبحه على تلك الصورة الدامية الأليمة التى قطعوا فيها رأسه بعد أن قطعوا لسانه ، فكان الملك الذبيح والقائد الشهيد ، ولقد ترك مقتله فى نفوس أمته نارا تجيش بالألم ، وتبعث الايمان واليقظة من جديد ، وتسطر سجل الحرية بدماء هذا الشهيد .

جهاد يوسف خان تورم :

وبعد انقضاء عامين على استشهاد هذا الملك الباسل كانت البلاد فى أثنائها على باب ثورة تنتظر من يقودها ، وإذ ذاك أقبل شقيق الملك الذبيح ، يوسف خان تورم ، يعاونه القائد العظيم . حق قولى يكباشى ، من جهة فرغانة وانضم اليه جيش كبير من البلاد حتى وصلوا الى كاشغر ونجحوا أول الأمر واستردوا بعض البلدان ، ولكن الامدادات التى وصلت الى

الجيش الصينى أوقفت هذه الانتصارات . وتفرقت جيش الوطنيين ، وأمعن الصينيون بعد ذلك تخريبا وقتلا بدون محاكمة ، وحجتهم فى ذلك أنهم يريدون إبادة أنصار الملك .

ورغم هذه المجازر الحمراء لم يذهب من القلوب ايمانها ، ولم تنطفىء نار حميتها الوطنية ، فلم يمض قليل على تلك الحوادث حتى اقبل الى البلاد الامير محمد أمين خان بن الأمير يوسف خان فى سبعة من كبار الأمراء ، ووجهوا ضربة قاصمة الى الصينيين و فلوا من شوكتهم ، وأنزلوا الرعب فى قلوبهم ، وتبوأ الأمير عرش تركستان من جديد (١٨٤٦م) وأخذ يطارد الصينيين فى كل مكان وهم ينهزمون فى طريقه ، حتى حاصرهم فى «ينكيحصار» ومضى على ذلك أياما ، ثم قامت من جديد حركات الجيوش الصينية وتجمعت الامدادات من اورومچى «بقيادة» خاى دؤى ـ جان ـ جون ، ومن قبائل قالماق المغولية ، ومن قارا شهر ايضا ، والتقوا جميعا فى «قارا شهر» وساروا متوجهين لانقاذ ينكيحصار ، فوجه اليهم الملك حملة قوية لصدهم فى آقصوا ولما تغلب الصينيون سار بنفسه مع الجيش ، والتقت الجموع من الفريقين فى «كوك رباط» وبعد قتال عنيف تغلبت الجيوش الصينية الكثيرة العدد ، و سار جيش الملك الى كاشغر ، فتبعهم الصينيون بمن انضم اليهم من المحصورين فى ينكيحصار

واضطر الملك بعد ذلك إلى النجاة بنفسه ، واتجه الى فرغانه ، أما الجيوش الصينية الزاحفة فقد دخلت كاشغر وصنعت بالمدينة العزلاء من الحوادث المروعة مالا يتسع لوصفه بيان ومدينة عزلاء مجردة عن كل سلاح تقع فى ايدى مئات الألوف من المدججين بالحراب والمدافع ، مدينة كهذه لا يحتاج المرء فى وصف حالتها إلى إطالة فى وصف ما يمكن أن ينزل بها من الويلات على أيدى هؤلاء ، وقد اضطر الأهلون الى مغادرة المدينة وخرجوا من ديارهم وأموالهم فرارا بأنفسهم وصاروا فى طريق فرغانه ، وكان ذلك فى وقت الشتاء فاصطدموا بموسم الثلوج ، وفى بعض السهول الجبلية هبطت تلك السيول الثلجية فغطت بين الوديان مائة ألف نفس قضوا نحبهم شهداء الظلم الفادح ، واسلموا أرواحهم أعزة أحرارا مؤثرين الموت الشريف على حياة الذل والاستعباد .

إلا أن محمد أمين خان لم يمض الى فرغانة ليطمئن بها ، بل ليجمع الوسائل لتجديد الغزو واعلان الجهاد واسترداد البلاد ، فعاد الى كاشغر مرة ثانية .

وانضم اليه من بقى فيها فافتتحها كما افتتح ما حولها من المدن بعد صراع عنيف وتحول إلى ينكيحصار وحاصر الجيش الصينى بها مدة طويلة حتى وصلهم الامداد فى خمسين ألفا من

الصين ووقفت الحرب وتكررت المأساة وعادا امين خان إلى فرغانه أخيرا .

جهاد ولى خان تورم :

وبعد سنتين قامت الثورة بقيادة الأمير ولى خان بن عم الملك محمد أمين خان فاعلن الحرب على الصينيين ولكنه انهزم أول الأمر حتى عاد فى آخر السنة نفسها فتقدم إلى الجيوش الصينية ووجه اليها ضربات قوية وانتصر فى جميع المواقع وأسلمت اليه البلاد زمامها . وجلس على عرشها ملكا يحوطه الجميع بالحب والولاء . فكان الصينيون يحسبون له ألف حساب ، ويسمونه شاهين النقمة ، وكانت ولايته على العرش سنة ١٢٧٣ﻫ (١٨٥٧م) وقد حفظ لهذا التاريخ كلمة يجمع حروفها بالجمل المعروف فتكون أعدادها تاريخ هذه السنة وهى كلمة ، مرغ بلا أى (طير البلاد) ، ولكن الكرة الصينية عادت فالحقت الملك بفرغانة بعد حروب شديدة ومقاومة عنيفة . بدأ الصينيون يظهرون غضبهم بانواع من الأرهاب وسفك الدماء كعادتهم واجبار الناس على اعتناق البوذية وتعذيبهم باحراقهم فى النار . واغراقهم فى الأنهار .



انتصار المسلمين على الصين

وفى سنة ١٢٧٧هـ وقعت الحرب المشهورة بين الصين وبين فرنسا وانجلترا فاحتلت هاتان الدولتان بكين وهزمتا الجيوش الصينية هزيمة منكرة فاستفاد التركستانيون من هزيمة الصين وأعلنوا استقلالهم مرة أخرى وشكلوا عدة أمارات وطنية فى كوجار وغولجا (ايلى) . وكاشغر : و . ختن : وطردوا الصينيين بعد حروب عنيفة .

أمارة كوچار وجهاد الغازى راشد الدين خان خوجم :

إن المسلمين فى تركستان لما علموا بانهزام الصين أمام فرنسا . وانكلترا انتهزوا الفرصة وأعلن راشد الدين خان خوجم من أحفاد مخدوم أعظم ثورة فى كوجار وناد المسلمين للجهاد فى سبيل الله والوطن وحرروا مدينة كوجار من أيدى الصين ونودى به ملكا على البلاد ولقب بالسيد الغازى راشد الدين خان خوجم كما انتخب شقيقه اسحاق خوجم قائدا عاما لجيش تركستان . فلما تم فتح كوجار . توجه الى بوكور . فانضم اليه أهلها وانقذوها من الصينيين كما انضم اليه أهل «كورلا» وساروا جمعياً الى . قارا شهر . وحاصروها ، وكان الوالى الصينى قد أرسل امدادا من الجيوش إلى الصينيين فى قارا شهر ووصلت الى أوشاق‌تال التى تبعد عن قارا شهر ببضعة أميال فبادروا

الى قمعها قبل أن تصل إلى قارا شهر ورفعوا عنها الحصار ، وأخفى بعض جنوده فوق الجبلين على جانبى الطريق ووقف هو مع بقية جنوده أمام الممر وكان الصينيون غافلين عن هذه الخطة المحكمه فلما وصلوا إلى الممر فوجئوا بهجوم من الجهات الأربع وكان الأتراك فوق الجبل يقذفون بالأحجار بدلا من طلقات النار واستمرت الحرب طوال النهار ، وأبيد الصينيون عن بكرة أبيهم ، وكان الفوز للمسلمين عظيما ، والانتصار باهراً والفتح مبيناً . فلما علم الصينيون المحاصرون فى قارا شهر أن المسلمين رفعوا الحصار وساروا لصد الجيوش القادمة إلى «أوشاق تال» أسرعوا بدورهم إلى التركستانيين ليضربوهم من خلفهم ولكنهم وصلوا بعد انهزام الصينيين ورأوا الميدان قد ملىء بالجثث من قتلاهم فوقع الرعب فى قلوبهم ووثب المسلمون عليهم بنشوة الانتصار كالأسود الضارية ، وهزموهم هزيمة منكرة ، وبهذا سقطت قارا شهر فى أيدى الأتراك . ثم اتجه المسلمون إلى «تور فان» وحاصروها ، وعلم الصينيون أن النجاة أصبحت ضرباً من المحال فخافوا أن يسقطوا فى أيدى المسلمين فاجتمعوا فوق مخازن البارود واشعلوا النار فانفجرت القذائف وارتفعت بهم السهم إلى الغمام ، وسقطت بهم إلى حضيض الثرى .

فلما رأى الصينيون فى «توخسون» و «داوانجين» و

«لوكجون» نجاح المسلمين وانتصارهم فى كل المواقع والميادين انتحروا جميعاً بالأفيون وتحررت المدن المجاورة كلها من الظلم والطغيان ، واعترفت بحكومة السيد الغازى راشد الدين خان .

ثم عاد القائد البطل اسحاق خوجم بهذه الانتصارات الباهرة إلى «كوجار» ونال الشىء الكثير من العطف والتقدير من الملك الغازى راشد الدين خان واستقبله الشعب استقبال البطل المجاهد والمنقذ الأعظم والقائد الأوحد . ثم توجه الجيش بقيادته صوب الغرب لانقاذ بقية البلاد من نير الاستعباد ، فوصل إلى قصبة «باى» فاستسلم الصينيون بدون مقاومة تذكر ، ثم تقدم إلى «آقصو» واشتبك الجيش التركستانى بالجيش الصينى فى «قارايولغون» فالحق بهم الأتراك الهزائم بعد معارك دامية وتقهقر الصينيون أن لا مفر لهم انتحروا جمعيا باشعال البارود كما صنعوا فى تورفهان فدخل الجيش التركى المظفر المدينة واستقبله الشعب بحماسة بالغة ثم توجه إلى «أوشتورقان» فاستسلم الصينيون بدون أدنى مقاومة ، ثم اتجه إلى (ياركند) وكان الأتراك فيها قد قاموا بثورة عامة قبل وصول القائد اليها ، ولكنهم كانوا على وشك الانهزام لكثرة قوات الاعداء ووفرة جنودهم ، ومناعة حصن المدينة ، ووصل اسحاق خوجم مع جنوده وانقض على الصينيين فانتحروا بأشعال البارود فى أنفسهم ، وكان عبدالرحمن خان خوجم من أبرع القواد فى فتح ياركند .

امارة قولجا :

أما (قولجا) فهى مدينة كبيرة فى شمال (تيانشان) فان أهلها عندما سمعوا بنجاح إخوانهم فى الجنوب انبعثت فى قلوبهم روح اليقظة ونيران الحمية ، وحملوا علم الثورة تحت قيادة زعيمهم المبجل (أبوالعلا خداقل خان) فجاهدوا وجالدوا حتى استولوا على ولاية جونغاريا كلها بعضها أثر بعض . وانضمت قبائل (صولون) و (چاقار) من المغول إلى المسلمين ، وحاربوا الصينيين فى صفوفهم ، واشتركت فرقة من السيدات المسلمات فى القتال . وأظهرت شجاعة بارزة وبسالة نادرة ، ثم انتخب (أبو العلا خداقل خان) أميرا على جونغاريا كلها . وكان اسحاق خوجهم قد حضر بنفسه لنجدة أهل (ايلى) فكان لمقدمة أثر بارز فى إحراز الفتح والانتصار .

امارة ختن :

أما ختن فقد قامت بثورة أيضا بقيادة إحسان خان بن المفتى الحاج حبيب الله وفاز المسلمون فوزاً عظيما حتى حاصروا الصينيين فى القلعة واستمرت المحاصرة شهرين ولما رأى الصينيون أن لانجاة لهم انتحر بعضهم وقتل البعض واستسلم البعض الآخر ثم استولى احسان خان على مدن (قاراقاش) و (يورونقاش) و (چيرا) و (كيريا) و (زاوا) و (بيالما) وغيرها من المدن

المجاورة لها . ثم انعقد مؤتمر عام لانتخاب ملك على ختن فانتخت إحسان خان ملكا أجماع الآراء ولكنه تنازل لأبيه حبيب الله خان مفتى ختن ، فبايعه المسلمون لما امتاز به من علم وتقوى وصلاحية وعدل .

امارة كاشغر :

وأما (كاشغر) فلم تقم بثورة بعد ، ولكن الصينيين أرادوا أن ينتقموا من أهل كاشغر لثورة اخوانهم فى المقاطعات الأخرى ، وخرجوا فى ليلة من مدينة يكى شهر (كاشغر الجديدة) . التى يقيم فيها الحاكم الصينى مع جنوده الى كهنه شهر (كاشغر القديمة) . مدينة المسلمين وأعلنوا قتلا عاماً فى البلدة للارهاب ، وبدأوا يستأصلون المسلمين وقتل آلاف مؤلفة من النساء والأطفال ، ولكن استطاع أحد المسلمين الفرار من المدينة بألقاء نفسه من القلعة إلى خارج المدينة ، وأخبر صديق بك رئيس قبائل قيرغز التركية الرحالة فى الجبال بأسلوب مؤثر ، فهاجت حميته وجمع شبانا من القيرغز وهاجموا الصينيين وحاصروا كاشغر القديمة ، وصعدوا إلى القلعة ودخلوا المدينة ، وقتلوا الصينيين وانتقموا منهم شر انتقام وانتخب هو ملكا على كاشغر .

وبذلك تاسست فى تركستان الشرقية أربع إمارات وطنية فى

ايلى وكوجار وختن وكاشغر ، وأما «أوروجى» فكانت فى أيدى التونكانيين (مسلمى الصين) كما كان بعض المدن لا يزال فى أيدى الصينيين غير المسلمين .

ارتقاء بزرك خان تورم على عرش تركستان الشرقية :

ولئن كان هذا النصر والنجاح سبعث الفرح والسرور فقد كان الانقسام وكثرة الدويلات وبقاء بعض المدن فى أيدى الصينيين مما يلقى الحزن فى قلوب بعض الزعماء . ولم يكن من الممكن توحيد دولتهم إلا بان يتبوأ العرش أحد أحفاد ملوكهم السابقين . وورثة الملك الشرعيين ، وكان صاحب السمو الأمير بزرك خان تورم بن الملك الذبيح جهانكير خان نزيلا عند الأمير عليمقول فى فرغانه ، فاتفق الزعماء مع صديق بك منقذ كاشغر على أن يدعوه ويجلسوه على عرش أبيه ، وأرسل صديق بك سفيراً إلى عليمقول زعيم فرغانه ورئيس وزرائها يطلب ارسال ملكهم الذى كان مقيما فى رعايته فاجابهم إلى طلبهم وأرسل الملك الى بلاده واستقبله الشعب باحتفال مهيب وأجلسه على عرش الدولة بالمراسيم الملكية والتقاليد القومية سنة ١٨٦٣م وأظهر شاعر بهجته وسروره فى قصيدة طويلة باللغة التركية مطلعها

انجاندن تورم كلدى * منا امدى اوينايمز
سيك يبلار حاكم بولسا * ديداريغه تويمايمز

ترجمـــة :

سلطاننا قد جاء من فرغانة

فاليوم نمرح فى الحبور ونرتع

لو أنه حكم الدهور جميعها

فقلوبنا من حكمه لا تشبع

وكان معه قائد محنك وزعيم مخلص وسياسى بارع اسمه يعقوب بك وكان فى رتبة ميرالاى (باتير باشى) وكان قد اشترك فى عدة حروب ضد روسيا وأظهر بسالة نادرة فكانت حياته كلها سلسلة جهاد لانقاذ البلاد ، ولغرس الوطنية فى نفوس أبناء الوطن فقلده الملك بزرك خان قيادة الجيش العامة ، كما قلد صديق بك رياسة الوزارة ، فاستمر يعقوب بك فى جهاده ، وشتت القوات الصينية ، وأنقذ يكى شهر وينكيحصار وسار الباشى وغيرها من أيدى الصينيين بحروب تشيب لهولها الولدان .

ارتقاء يعقوب خان على العرش :

ولما رأى جلالة الملك بزرك خان بسالة يعقوب خان النادرة وعبقريته الفذة قلده رياسة الدولة كما أطلق عليه الأمير مظفر الدين خان أمير بخارى لقب «آتالق غازى بدولت» ثم تنازل له صاحب الجلالة بزرك خان تورم عن الملك وسافر

بنفسه لأداء فريضة الحج ، وصار يعقوب بك من ذلك اليوم أتالق غازى يعقوب خان .

ثم بدأ يعقوب خان يدعو زعماء البلاد الى العمل لمجد وطنهم ورفعة شأن بلادهم ويوقظ فيهم روح الحمية الوطنية والشعور بالعزة القومية ويحث الأمة على نشر التعليم القومى لكى تقوى الروح الوطنية فى نفوس الجيل الجديد ، ويستعد الشباب للاضطلاع باعباء الجهاد ، وكان من نتائج دعوته وجهاده ان اتحد امراء تركستان الشرقية تحت رايته طوعا أو كرها وكان بقايا التونكانيين والوثنيين من الصين لاتزال مرابطة فى «اورومجى» ثم انبعثت فيهم غريزة العدوان فهاجموا المدن على التوالى وكانوا كلما غزوا مدينة سبوا أطفالها حتى وصل عدوانهم الى مدينة «كورلا» وفر حاكمها الى «بوكور» وكتب الى اسحاق خوجم حاكم كوجارو استنجد هو بدوره بحكم خان تورم القائم بالامر فى آقصو ولكن التونكانيين لم يمهلوهم فاغاروا على «كوجار» وافتتحوها وبلغ الخبر الى جلالة الملك يعقوب خان وهو فى كاشغر فهب من فوره فى غضبة الأسد الهصور يقود الجيش الجرار حتى وصل الى الجيوش الصينية فى «سايرام» وقاتلهم ففروا الى كوجار فما زال بهم هذا الملك المظفر حتى أجلاهم وفتح المدينة وما كاد يتوسط شوارعها حتى أطافت به

صيحات الآباء وعويل الامهات «أطفالنا وأبناؤنا يا جلالة الملك» فأثرت هذه الأنات الموجعة فى قلبه الطاهر ، وأقسم لن يدع فى أرض تركستان صينيا واحدا ينعم بالحياة فيها بين أرضها وسمائها ونهض من فوره يطارد الصينيين ما بين تونكانيين ووثنيين حتى دفعهم إلى بوكور ثم الى كورلا فقاراشهر وتوخسون حتى تورفان وهنالك اعتصموا بقلعتها المنيعة وأقاموا فى نطاق من الحصار ستة أشهر وحاولوا أن ياخذوا جيش الملك على غرة فهاجموا جنود الملك وهم آمنون ولكن جلالته كان يقظا حازماً فتقهقرت الجيوش الوطنية تبعا لخطة الانسحاب الحربية وخيل للصينيين أنهم قد ظفروا بالغنيمة وما لبثوا أن وجدوا سيوف التركستانيين وحرابهم تكن عليهم فتردهم على الأعقاب ولم يدع الملك لهم فرصة التحصن بالقلعة مرة أخرى فقد أسرع اليهم بحملة أخذت عليهم مسالك النجاة وأعمل فيهم الابادة والافناء وما زال بجيشه الظافر يتبع مواقع الجيوش الصينية فى كل مدينة حلوا بها حتى أبادهم الى أن كانت الموقعة الاخيرة فى «أورومجى حيث قتل من الصينيين اثنا عشر الفا واستشهد من الترك ثمانمائة لا غير .

وبذلك تم ليعقوب خان النصر النهائى وطهر تركستان بمدنها ومعاقلها وشواطئها وجبالها من الصينيين ولم يبق فيها جندى واحد أجنبى واسترد الأطفال وأعادهم الى آبائهم آمنين .

وكان الشعب التركستانى يقدر يعقوب خان حق قدره ويحبه من صميم قلبه ، وكانوا يعلمون أنه هو الزعيم الوحيد الذى يرشدهم الى الحياة السعيدة ، ويخرجهم من الذلة الى المجد ، ومن الظلمات الى النور ، ويقودهم فى الدفاع عن كرامة الوطن وشرف الامة ويغسل قبائح التاريخ بالدم الحار ويحطم جمجمة العدو بالسيف الحاد .

ولما رفرف علم السكون والهدوء فى أرجاء تركستان الشرقية بدأ يعقوب خان يعمل على توثيق عرى الصلات السياسية الخارجية بينه وبين الامم عامة والشعوب الاسلامية خاصة فارسل سفراءه الى تركيا العثمانية لمبايعة الخليفة السلطان عبدالعزيز خان وطلب من دار الخلافة ضباطا أتراكا ليدربوا الجيش التركستانى فارسل الخليفة اليه عددا من الضباط والاسلحة عن طريق الهند واعترفت حكومه تركيا بحكومة تركستان الشرقية وكان الروس قد أمضوا مع الصين معاهدة تنص على تقسيم التركستان فيما بينهم واعترفوا بسيادة الصين فى تركستان الشرقية كما ان الصينيين ايضا كانوا قد اعترفوا بسيادتهم فى تركستان الغربية لاجل هذا لم تعترف «بتروجراد» بحكومة يعقوب خان عدة سنوات ولما رأت أن استقلال تركستان أصبح أمرا واقعا وان حكومة يعقوب خان قوية منظمة اعترفت بها وأرسلت الى كاشغر وزيرا مفوضا ، وأرسلت كاشغر وزيرها المفوض (ملا تراب)

الى بتروجراد واعترفت بها ايضا حكومة بخارى وأرسل ملكها مظفر الدين خان ولى عهده عبد الملك خان الى كاشغر وقد أرسل خديوى مصر اسماعيل باشا مندوبا خاصا الى كاشغر سنة ١٢٨٩ هـ كما أرسل من مصر الى كاشغر مدافع وبنادق عن طريق الهند تحت نظارة الضباط يوسف وشركس يوسف واسماعيل حقى بك كما جاء سفير تركستان الشرقية الى مصر مزودا بانفس التحف والهدايا الى الخديو وفى مقدمتها مصحف مموه بالذهب الخالص وقد شاهدته بين مخلدات الفن ومعجزاته فى متحف دار الكتب الملكية المصرية . ومن هذا العهد أمر يعقوب خان أن يذكر فى خطب الجمعة اسم الخليفة عبد العزيز خان يضرب باسمه النقود .

وكان الانجليز ينظرون الى حكومة يعقوب خان بعين العطف والصداقة فقد كانوا يسمحون بنقل الاسلحة والضباط من تركيا الى تركستان عن طريق الهند .

وقد أرسل (اللورد نورث بروك) نائب المملكة فى الهند فى ذلك العهد وفدا مؤلفا من ثمانية أشخاص تحت رياسة المستر (فورسيتك) الى كاشغر فتقدم سفير انكلترا أوراق اعتماده الى يعقوب خان على اسم جلالة الملك البريطانية فأبرم بين الحكومتين معاهدة تجارية على أساس مساواة الحقوق .

وقد اعترفت حكومة افغانستان أيضا بحكومة تركستان الشرقية ، وكان سلكها فى ذلك العهد «شير على خان» .

استمر حكومة يعقوب خان من ١٢٧٠هـ الى ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) .

وكان عهده عهد الرفاهية والسعادة للبلاد . وهل من سعادة ورفاهية ألذ من الحرية والاستقلال ؟ وقد تقدمت الحياة العلمية والادبية والاقتصادية المادية فى عهده تقدما كبيرا حتى ان السفراء الانجليز والروس الذين ارسلوا الى كاشغر أظهروا دهشتهم من هذا التقدم السريع ومن انتظام حكومة يعقوب خان وجيشه .

ولم يقم يعقوب خان بالاصلاحات الحربية والسياسية فحسب ولكن همته كانت أبعد من ذلك مدى وأسنى مراما . فقد بنى المدارس والقصور وأبدع فى تشيد العمارات الشامخة وأصلح ما دمرته الحروب المتوالية وعاد العمران الى البقاع التى تركتها الغارات المتتابعة خرابا بلقعا وقاعا صفصفا فاعاد لها النضارة والجلال ، والقى عليها ظل البهجة والسرور . ومن أعظمها شأنا الجامع المشهور (عيدكاه) فى كاشغر وشيد كذلك قبة على ضريح (ايباق خوجم) مؤسس اسرة الخوجوات كما شيد

هنالك جامعة كبيرة . وأقام قلعة فى مدينة (كورلا) وعدة مساجد أخرى فى آقصو وكوجار وبوكور وغيرها .

واعترف ساسة العالم بعظمة يعقوب خان وبراعته السياسية والخدمات الكبرى التى أسداها الى وطنه . قال السائح الانجليزى (جيو آرد) الذى زار جلالته فى شهر فبراير سنة ١٨٧٠م لو لم تكن آسيا الوسطى فى حصار ضيق من عدة دول أجنبية فى عهد يعقوب خان لكان هو جنكيز خان الثانى فى فتوحاته .

وأيضاً يقر السائح الانجليزى (شاودا) الذى قابل جلالته بعد (جيو آرد) بسنة واحدة بأعجابه ودهشته بمهارة يعقوب خان وسياسته ويقدر المعجزة الكبرى التى أظهرها فى الحروب .

كان الصينيون فى عهد يعقوب خان مشغولين بأطفاء نار الثورة التى اشتغلت فى ولاية يونان من الصين ، فان أكثر من كان فى هذه الولاية كانوا من الصينيين المسلمين فثاروا ضد حكومة بكين وأعلنوا استقلالهم وأسسوا حكومة تحت زعامة سليمان (دو - وين - شو) فى مدينة «تاليفو» ولكن لم يمض زمن طويل حتى استولى جيش الامبراطور عليها وضمها ثانياً إلى الصين ثم وجه الصينيون أنظارهم نحو التركستان الشرقية ، وأرادوا أن يختبروا طالعهم ثانيا فأرسلوا اليها جيشا عظيما سنة ١٢٩٣هـ وحاصروا مدينة «أورومجى» ستة أشهر ثم احتلوها واستمرت الحرب

بين الطرفين أكثر من سنتين وقد مات يعقوب خان فجأة فى أول أيام الحرب (١٧ مايو سنة ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) فأعلن حكيم خان نفسه ملكا على التركستان وقد قام خلاف عظيم بين أمراء البيت المالك فى من يخلف يعقوب خان . وسبب هذا وقوع حرب أهليه بينهم ، فاستفاد الصينيون من هذه الحروب واحتلوا المدن الشمالية بعد حروب عنيفة ثم المدن الجنوبية وتمت فتوحاتهم سنة ١٢٩٥هـ باستيلائهم على كاشغر .

وبذلك استولت الصين على تركستان الشرقية كما استولى الروس على تركستان الغربية وبعض أجزاء تركستان الشرقية ثم قدم الروس إمارة ايلى إلى حليفتهم الصين سنة ١٨٨١م وبذلك ثم استيلاء الصين على تركستان الشرقية كلها ، ثم وقع الصدام بين روسيا وانكلترا سنة ١٨٩٥م وأصبحت ولاية پامير من نصيب روسيا وأقيمت الحدود بين روسيا وانكلترا وبقيت بلاد الافغان دولة تفصل بين ممتلكات روسيا وانكلترا . وبذلك انطفأ سراج من المجد طالما أشرق على الدنيا بنوره الوهاج ، ونشر على الدنيا أشعة المدنية والحضارة ولكننا نؤمن إيماناً كاملا ونعتقد اعتقادا راسخا أن تركستان ستعيد مجدها وتعود بمشيئة الله إلى مستقبل أعز من الماضى وإلى نهضة تغسل هذه الاهانة فى مشيئة الله ، فى ضمان الحق ، وفى ذمة العدل وفى نهضة البلاد ، ويعود لها النصر والفوز والاسعاد .

عبدالعزيز جنكيز خان

صوت الوجدان والحنين الى تركستان

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده و نصلى على رسوله الكريم

هذا صدى الحنين والاخلاص ، وهذا صوت تتناجى به الأشواق في قلبي الخفاق :

وهذا هو الوطن المحبوب ترتسم صورته فى هالة من النور ، فيهيج مكامن الشعور ، فيجرى القلم فى هذه الصحائف بما احتوت من سطور ، طالت بي الغربة عن مسقط رأسى . وماوى عشيرتى وقومى ، ومبعث مهادى ، ومستقر آبائى وأجدادى ، بعد أن طوفت الأقطار ، وركبت الاسفار ، و تجولت بين أمم و بلاد ، وتقلبت بين أغوار وأنجاد ، فمن الهند إلى الصين ، ومن وطن النيل والأهرام ، إلى بيت الله الحرام ، وقضيت هذه السنوات الأخيرة فى المملكة المصرية والجامعة الأزهرية فجامعة فؤاد الأول معلماً ومتعلماً ، وأنا فى كل ذلك لا يغادرنى حب الأوطان ولا تبارحنى ذكريات تركستان .

وفى ساعة من ساعات التفكير وجدت هذه الذكريات ، يتحول نشرها فى نفسى إلى إشعار منظومات ، كأنما أراد الخيال أن ينتقل البيوت إلى نظم الأبيات . فأتيح لى التغنى بهذه القصائد والرباعيات ، فى أمجاد تركستان ورجالها ، وما أفاد الاسلام من أبطالها .

أدام الله المسلمين فى عز وإقبال ، وحقق لتركستان ما ترجوه من فوز الآمال .

الداعى

عبدالعزيز جنكيز خان

ابن العلامة قاضى القضاة دا ملا عاشور

أعلم آخوند البكورى الينكيحصارى

أنشودة الذكرى

نجوى الهوى وتحية الاكبار
لك يا حمى مجدى ومهد قرارى

وطنى وحبك ساكن فى مهجتى
والحب للوطن الكريم شعارى

أهلا بذكراك التى أحيا بها
كالروح ملء السمع والابصار

يا أرض تركستان إنك جنة
والشوق عندى من لهيب النار

ما كان أجمل طيب أيام الصبا
فى الصحب والخلان والسمار

نتناول الآداب والعلم الذى
يسمو على الاصباح فى الأنوار

وطن يموج حدائقا ومراعيا
بسامة الأفنان والأزهار

من كل فردوس وكل خميلة
محفـوفـة بعـرائس نوار

تجرى جداولها سلاسل فضة
يا حسنها فى ملتقى الأنهار

لمناظر الأزهار فيها بهجة
تهدى العبير لهاتف الأطيار

علماؤها الأقمار قد صعدوا بها
في المجد فوق منازل الأقمار
من كل غطريف تكاد ترى له
في العلم والآداب فيض بحار
حتى كأن أبا حنيفة بينهم
حي يضيء مراشد الأفكار
وترى المحدث حاكما أو مسلما
حسناً صحيح العلم وهو بخاري
من حافظ أو حجة في فضله
كالصبح ليس ضياه بالمتواري
من كل قاض بالعدالة مشرق
كالبدر أو كالشمس في الأنوار
فكأن اندلسا وبغداداً معاً
لبسا بتركستان تاج فخار
لغة الكتاب تعيش بين ربوعها
فكأنها تحيـا بأرض نذار
ومؤلفات الفقه تحمل فضلهم
عطراً إلى الأصقاع والأقطار
وطن المعادن رمله من عسجد
ونباته من سندس ونضار

والماء يجرى باللجين كأنه
نشوان حول الروضة المعطار
يبقى الربيع بها لغير نهاية
ويدوم فى صفو وفى استبشار
تسرى الطبيعة فى مباهج حسنها
من سفح «بامير» إلى «قاشغار»
وعلى «تيانشان» يحلق نورها
ويسير منحدراً إلى «جونغار»
أما «تيانشان» العظيم فآية
تروى صحائفها على الأزهار
جبل كأن النجم يسكن فوقه
إن مسه تعب من الأسفار
عال يمثل أهله فى رفعة
فى سؤدد وسكينة و وقار
وكأنه ملك عظيم حوله
جيش من الغابات والأشجار
جبل تحف به الثلوج كأنها
تاج عليه مرصع بدرارى
فاذا رأيت رأيت جنات صفت
من عالم الأحزان والأكدار

دنيا أقمت بها ، فيا أكرم بها
من أربــع محبوبة وديـار

فيها النهار سعادة ومسرة
والليل فيها مشرق كنهار

أيام كنت أجول فى جنباتها
مثل النسيم يطيف بالأسحار

لا يعرف الانسان فيها طارقا
للـهم فى جهـر ولا إسرار

كانت حياتى فى رباها حرة
وأرى الحياة تطيب للأحرار

شعب هو التاريخ فى مجد وفى
ملك و فى فن و فى أثار

من كل سلجوق وجنكيز وتيمور
سموا فى رفعة المقدار

من كل سباق شجاع فى الوغى
ندب وكل مجالد صبار

هذا حسام فى يمين مجاهد
يبدو وهذا مصحف للقارى

فكأنما الأخلاق طينة خلقهم
أكرم بهم من سادة أطهار

فاذا ذكرت الأولياء فأرضهم

مهد الهدى ومواطن الأبرار

لما ارتضوا دين الرسول شريعة

نهضوا بها بالسيف فى المضمار

وغدوا أئمتها وحصن جلالها

وأمان ملتها من الأخطار

لو عاصروا طه النبي رأيتهم

للمصطفى فى خيرة الأنصار

كتب الاله لها السعادة والعلا

وأدامها فى نعمة ويسار



رباعيات

أرونى العلا نظم اللالى
لأهديها إلى وطن المعالى
ديــار شيدت للمجد صرحاً
رفيعاً مشرقاً مثل الهلال

* * *

أضاءت بالهدى نهج السعود
كمثل الشمس لاحت فى الوجود
وان بلاد تركستان دوما
تسامت للــرقى وللخلــود

* * *

بلاد أرضها الجنات زهرا
وفيها كوثر الاسعاد نهرا
تحيات من الأشواق تهدى
إلى سكانها شفعاً ووترا

* * *

بها العمران كان لها ازدهار
وفيها العز دوماً والفخار

لها في العلم والآداب نور
يضيء الصبح منه والنهار

* * *

مراعيها من الجنات خضر
وفي جناتها ثمر وزهر
وفيها الكوثر البسام يجري
على تلك الحدائق وهو نهر

* * *

«تيانشان» هو الجبل الرفيع
و «خان تكرى» هو العلم المنيع
وفي ساحاته تلك المراعي
من الفردوس منظرها بديع

* * *

بجنكيز و تيمور العظيم
سمت في سؤدد المجد القديم
إذا ذهب الملوك فان فيها
تراث العز و الملك الكريم

* * *

سينهض أهلها نحو ارتقاء
كعود الصبح من بعد المساء

إذا ألفيت في الدنيا ظلاماً

فأبشر بالشروق وبالضيـاء

* * *

سيطرد عن حماها كل عادى

و ينمو الخير فيها بازدياد

بلاد أنبتت للغاب أسداً

و يبقى الخير فى تلك البلاد

* * *

مـواطن أشرقـت بـالمـاجـدينـا

و أرض أينـعت بـالصالحيـنا

وخلق من غطارفـة أسود

تضىء فعالهم دنياً ودينا

* * *

ترى فى الليل أوجههم ضياء

و فى الآلام همـتـهم دواء

و فى الاخلاص عشرتهم إخاء

و فى الأيام صحبتهم وفاء

* * *

هم نشأوا على الاسلام شعبا

وزاد رقيهم شرقاً وغربا

وما زال الزمان بهم حفيا
يشيد بفضلهم سلما وحربا

* * *

فمن جيش تسامى للنجوم
إلى علماء سادو بالعلوم
وتركستان رغم الدهر تبقى
رحاباً للرقي وللفهوم

* * *

جمال طبيعة وجمال طبع
وحسن شمائل وجلال صنع
قد اخضرت فضائل ساكنيها
كما اخضرت بأفنان وزرع

* * *

رأى تاريخها المجد القديما
وشيد أهلها العز القويما
أقامت للفخار صروح مجد
وما زال الفخار بها مقيما

* * *

سرى الاسلام فيها كالعبير
ولاح كمشرق الصبح المنير

وأسلم أهلها طوعاً وحبا
لدين الخالق الحى القدير

* * *

فما كادت تمر به سنونا
وإذ هم بالشريعة ناهضونا
حموا ركن الكتاب تقى وعلما
فهم علماء أو هم فاتحونا

* * *

تساموا فى القليل من الزمان
إلى فضل يجل عن البيان
فتصنيف وتاليف وحفظ
بدائعه سمت فوق المعانى

* * *

هنا الأبطال قاموا للجهاد
هنا العلماء هبوا للرشاد
هنا جيش هنا سيف وترس
هنا القرآن مرفوع العماد

* * *

هنا كتب الحديث تضىء نوراً
وتنشر من صحائفها سطورا

سماء للحديث علت مقاماً
بها الفاظ قد طلعوا بدورا

* * *

حديث المصطفى عالى المنار
بتركستان مرفوع النجار
فهذا «الترمذى» وذا «النسائى»
أمير المؤمنين هو البخارى

* * *

وفقه أبى حنيفة بالهداية
تزيد به مصابيح الهداية
فذلك نور مبسوط السرخسى
وذا صدر الشريعة بالوقاية

* * *

سموا بالضاد فى شرف الأصول
بسعد أو بجرجانى و صولى
وجار الله كشاف المعانى
به التفسير مرفوع الدليل

* * *

وإن أدركت فلسفة ابن سينا
رأيت مواهب المتقدمينا

وقد جلى أبو نصر فابدى
مآثر تملأ الدنيا فنونا

* * *

ملوكهم الأولى شادوا وسادو
بهم فى المجد يرتفع العماد
كم غنت بذكرهم البوادى
وكم ضاءت بنودهم البلاد

* * *

فكم كسروا من الأصنام صخرا
محوها وابتنوا للدين فخرا
لقد تركوا هياكلها هشيما
ولو كانت على الغبراء تبرا

* * *

وكم شادوا المدارس للعلوم
وكم بعثوا مصابيح الفهوم
لهم فى نهضة الآداب ذكر
تسير بهديه غرر النجوم

* * *

بنوا فى ملكهم جنات عدن
وقد غرسوا بها من كل فن

لقد شهدت بعدلهم البرايا
وكل الخلق من إنس وجن

* * *

لقد ردوا الصليبيين قهرا
وهم فى الذل من قتلى وأسرى
وما عاشوا لأنفسهم ولكن
لكى يبنوا لدين الله نصرا

* * *

خزائنهم نطالبها نضار
وهم للجود فى الدنيا بحار
إذا ذكر العلا فهم الأعالى
على خطواتهم يمشى الفخار

* * *

يغيثون الفقير من البلاء
ويحمون اليتيم من الشقاء
مروءتهم تلبى سائليها
وتسمع صوتهم قبل النداء

* * *

يجوع الشعر إلا فى هماهم
ويسقى الفن إلا فى علاهم

إذا ما قيل أى الناس خير ؟
يقول الدهر والأيام هاهم

* * *

ترى الفلكى فيهم والطبيبا
كما تجد المهندس والأديبا
وكم من كاتب لو لا نداهم
لأجرى من دم القلم النجيبا

* * *

فضائلهم على فرش وعرب
ودولتهم على شرق وغرب
عدالتهم على الاصلاح كانت
بساط الارض من قطب لقطب

* * *

سل التاريخ فهو بهم خبير
سل الأيام فهى بهم تنير
فهم لسعادة الأيام حصن
وهم لمطالع الدنيا بدور

* * *

ملوك الترك فى الاسلام كانوا
كواكب يستضىء بهم الزمان

فلم تجحد مكارمهم ديار
ولم ينكر فضائلهم مكان

* * *

على قدم الشجاعة والمضاء
إلى علم الترقى والعلاء
ضراغمة لهم فى الارض عز
يكاد ينال هامات السماء

* * *

فاين وأين محمود الأمين
سما فى الجنتين « سبكتكين »
وكم ملك كمحمود كريم
تضىء بوجهه دنيا ودين

* * *

و « بابر شاه » الملك العصام
سما بجهاده أعلى مقام
له فى الهند أشبال أعادوا
بناء الحق من بعد انهدام

* * *

بنو سلجوق عبدهم الزمان
وجنات الخلود لهم مكان

تجمعت المواهب والسجايا
فشيد صرحها «ألب أرسلان»

أصاب بعزمة الجيش اليسير
مقاتل ذلك الجند الوفير
ونال بساحة الأناضول نصرا
بعون القادر الحى النصير

بساحة «وان» عنده ملاذكرد
تقلد فى الوغى إكليل مجد
ونال بجيش تركستان فوزا
وهم يوم الوقائع خير جند

أذاق الروم من يده سعيرا
و (رومانوسهم) أضحى أسيراً
وطهر ساحة الميدان منهم
وشاد الترك بعدهم القصورا

بلاد أصبحت للترك دارا
يفوق جلالها أيام دارا

وأما الظالمون فقد أبيدوا

وفوقهم عذاب الموت دارا

بنو سلجوق فى أوج المعالى

تضىء بذكرهم ظلم الليالى

لهم مدنية فـوق الثريا

تجل عن البراعة فى المقال

هم مهدوا لعثمان الفخارا

وللاتراك فى الدنيا انتصارا

وللاسلام كانوا خير حصن

وكان بهم على الدنيا منارا

بفضل جهادهم ملأوا العصورا

وقد سكنوا من الحب الصدورا

تراهم دولة من بعد أخرى

تضىء فتملأ الأجيال نورا

مواكب قد توالت فى العلاء

كواكب قد تجلت فى الضياء

إذا ما غاب ملك جاء ملك

يفوق السابقين الى ارتقاء

ترى أمم الصليبيين قاموا

ومقصدهم من الدنيا أثام

بكل محلة منهم بلاء

به الاسلام فى الدنيا يضام

فقد ملأوا المواطن والبقاعا

كما سدوا على الشمس الشعاعا

فأقبل جيش تركستان يحدو

فيالق تشبه السيل اندفاعا

فسد الظالمين عن الديار

ورد الكافرين الى البوار

وزلزل كل طاغية عنيد

بسيف القتل أو ذل الاسار

كذلك جيش تركستان دوما

يرد عن الحى قوماً فقوما

يجاهد في سبيل الله سعيا

ولا يرضى عن العلياء نوسا

فطهر أرض أحمد من عداه

وللأسلام رد له حماه

لقد نصروا الهدى حرباً وسلما

وقائدهم الى النصر الاله

ولو لاهم رأيت الكفر شاعا

ولو لاهم لكان الحق ضاعا

أولئك جند ربك جند طه

(وقد عاينتي فدع السماعا)

هم صانو الشريعة باتحاد

كما صانوا الخلافة في حياد

أقاموا لسنة الهادى منارا

منيع الركن مرفوع العماد

هم ملكوا فما سلبوا الرعايا

وهم حكموا فما ظلموا البرايا

كأن حديثهم في كل معنى
عبير للفضائل والسجايا

تعصب غيرهم فمحا اللغات
وجار على الديار الآمنات
وهم صانوا اللغات وهذبوها
فعاشت في سماء النيرات

سلام الله أبعثه عبيراً
الى من حققوا الأمل الكبيرا
الى من شيدوا في كل أرض
بناء عاليا ملأ الدهورا

كرام من كرام من كرام
لهم قدر على الأجيال سامى
بهم غرر المدائح زاهيات
تنير حديثها حلك الظلام

غزاة في الممالك فاتحونا
ملوك في البريد صالحونا

لهم همم الى العلياء ترقى
فهم فى المجد دوما صاعدونا

تری أيامهم تحكى الربيعا
وتعلو فى مشارقه سطوعا
فلم أر بينهم إلا مجيداً
ولا فى شعبهم إلا رفيعا

سل الآثار فى العصر الخوالى
تجد آثارهم صحف الجمال
هم ملكوا أعنة كل فضل
يخلد باسمهم آى الجلال

مضى فى العالمين مؤلفونا
سموا بجهودهم ومصنفونا
بفضل ملوك تركستان كانوا
لبنيان العلوم يشيدونا

تأمل فى المكاتب وهى تترى
تفيض معانيا وتضىء سحرا

بفضل نوالهم كتبت وأبقت
لناولهم على الأيام ذكرا

هو التشجيع ينهض بالرجال
ويبعثهم الى درك المعالى
ولست ترى من العلماء علما
اذا جاعوا وضاعوا فى الليال

هبات ملوك تركستان تجرى
فتجرى للمعارف ألف بحر
وتلقى الملك تغمره كنوزا
من الآداب فى شعر ونثر

فمن شعراء قد نظموا اللالى
الى علماء قد نشرو الغوالى
بفضل ملوكهم جادوا وسادوا
وكانوا للحجا أعلى مثال

صحائفهم لنا أسمى ضياء
معارفهم لنا أقوى غذاء

فتلك هبات تركستان فينا

على الأيام دائمة البقاء

يزول الناس إلا العاملونا

ويفنى الخلق إلا المحسنونا

ملوك العدل إن أضحوا رفاتا

فهم فى كل قلب مالكونا

إذا ماتوا فليس لهم فناء

وإن ذهبوا فما لهم انقضاء

لهم فى جنة الذكرى خلود

وفى رضوان ربهم جزاء

إلى العمران جدوا مخلصينا

وشادوا العز فى الدنيا حصينا

مدائنهم تدل على رقى

أجاد العلم وابتكر الفنونا

مدائن بالحضارة عامرات

وبالنعم الوفيرة مشرقات

كأن بناءها أمست بروجا
تضيء بها عليك النيرات

هي المدن التي حوت البدورا
وقد بنيت منازل أو قصورا
حدائقها هي الرضوان غرساً
وقد غرسوا مع الزهر الحبورا

تطاول هامة السبع الشداد
وفيها الخير منشور النوادى
فتسكن أرضها طيباً وأمنا
ويسكن حبها لب الفؤاد

أعادت سحر بابل في الزمان
وفاقتها بجنات حسان
تذكرنا بقرطبة وتحيي
لنا إرماً بهاتيك المغانى

سلام المسك من ختن عليها
فهذا القلب مشتاق اليها

إذا ما رمت فى دنياك حسناً

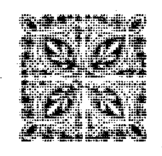
فكل الحسن والدنيا لديها

فكل مدينة تزهى جمالا

كبلقيس وقد حوت الجلالا

إذا ما زرتها فى جنح ليل

حسبت الصبح فيها قد تلالا



سمرقند

(سمرقند) عروس الأرض جمعا
تفوق رياضها غرساً وزرعا
فهذا الكنز من أدب وعلم
وهذا الخصب من ماء ومرعى

تمر بها الكواكب وهى حيرى
فتمهل فى فضاء الجو سيرا
كأن بها غراماً فهى دوما
نشاوى الحب أوهى فيه أسرى

فراديس هى الملك الكبير
فما فى المشرقين لها نظير
وكان بها (لتيمور) جلال
ومنبره المعظم والسرير

تراها العين واحدة الزمان
تألق فى رباها جنتان

سقى مخضرها نهر زلال
فأهلا بالزبرجد والجمان

هى الخضراء ليس بها جديب
هى الرضوان ليس بها لغوب
هى الأفراح ليس بها هموم
شباب الدهر فيها لا يشيب

بتيمورلنك دان لها الوجود
وسارت فى مواكبها السعود
تباشير المنى تسعى اليها
وأبطال الكفاح بها جنود

لقد حفلت بتيمور الكبير
ومرقده الرفيع بـ (كورمير)
كأن جلاله فى القبر باد
على التاريخ كالصبح المنير

ولو شاهت جامع (شاه زنده)
رأيت قداسة الأبرار عنده

شهيد كان للأسلام عونا

سقاه الخلد فى الرضوان شهده

ومدرسة هناك ل (بيبى خانم)

بها العمران مرفوع المعالم

فكم من طالب قد كان فيها

يدين له بفضل ألف عالم

ومدرسة تسمى (شيردار)

وأخرى وهى تدعى (تلله قارى)

مموهة الجوانب بالنضار

كأن الشمس تسكن فى الجدار

ومرصد شبل (تيمور) تراه

كأن النجم يسكن فى ذراه

سمت طبقاته العليا ثلاثا

ولا يسمو البيان الى علاه

هناك الملك كان لها ازدهار

هناك العلم تم له الفخار

جميع الفضل من دين ودنيا
حوته كله تلك الديار

وقرب رحابها قبر (البخارى)
سطوع الشمس من ذاك المزار
أمير المؤمنين به مقيم
بـ (خرتنج) فأكرم بالجوار

هى الآثار باقية دواماً
سقتها جنة المأوى غماما
مفاخر أرض تركستان تبقى
وتبقى للعلا ذاك المقاما

بخارى

ضياء العلم أشرق من (بخارى)
بها الاسلام فى الدنيا أنارا
مصابيح من العلماء كانوا
يضيئون المنازل والديارا

مدارس للحجا كانت مئينا
تفوق هناك عد الحاسبينا
ملوك الفقه والفتيا تراهم
أعادوا ثم عهد الراشدينا

ألا يكفى (ابن اسماعيل) فيها ؟
تزيد بقدره فخراً وتيها
أمير المؤمنين وسوف يبقى
دليلا مشرقا فى نابغيها

وقد صار اسمه رمز الحديث
مضيئاً فى القديم وفى الحديث
وكان العلم يجرى فى رباها
كمثل الريح فى سير الحثيث

فكنت ترى المدارس فى حماها
(كوكلناش) تخبر عن علاها
كأن الله لما أن بناها
لغرس العلم والفقه اصطفاها

وقصر العارفين بها رفيع
لشاه النقشبند له سطوع
ولى عبقرى ألمعى
يتمم نور ساحته الجموع

وسعد الدين فى ذاك المكان
يطل عليك من غرف الجنان
لقد أضحى جوار النقشبند
بديعا فى البيان وفى المعانى

حباها آل سامان الفخارا
وفاقوا ملك ساسان ازدهارا
وحسبك عندها ذكرى ابن سينا
لتعرف كل فضل عن بخارى

تاشكند

وطاشكند التى حوت الجمالا
تحاكى الجنة المأوى زلالا
وقد عرفت بـ (شاش) يوم كانت
يشد لعلمها الناس الرحالا

مبانيها التى تعلو الجبالا
عمائرها التى تسمو الخيالا
منازلها تطيب لساكنيها
فما يبغى امرؤ عنها ارتحالا

خجند و خوارزم وياركند وآقصو

وقد حاكت مآثرها (خجند)
وجلت فى المشارق (ياركند)
وخوارزم الكريمة ثم (آقصو)
لها فى العلم إشراق وسعد

كاشغر

و (كشغر) وهى تبدو ذات سور
وان أنصفت قل هى ذات نور
تراها بين نهرين استقلت
بمجرى الماء أو مجرى العبير

بها العلماء أقطاب الديار
وفيها العلم مثل النهر جارى

بها المدنية العلياء قامت
وقامت وهى عالية المنار

اذا يممت مسجد (عيدكاه)
رأيت الدين فى عز وجاه
بنا (يعقوب) الغازى علاه
ودام له الثناء بلا تناهى

بها العلماء تشهدهم صفوفا
بها الطلاب تلقاهم ألوفا
بحار فى العلوم لكل أرض
ويوم الحرب تنظرهم سيوفا

وقبتها التى جات بناء
بتلك الأرض تحسبها سماء
كأن لسيد الآفاق فيها
حلى الفردوس تلبسها رداء

قراها وهى خضراء الأديم
تراك مثال جنات النعيم

وكشغر للحضارة خير ركن
وفيها آية الفن القديم

كوجار

وما زالت بسؤددها (كشار)
إليها بالعلاء أبدا يشار
مآثر (قومطورا) فيها كتاب
مداد سطوره لهمم الكبار

أحيطت بالمدائن والقصور
وبالآثار والملك الكبير
ترى (شهيار) فى طرف وتلقى
تباشير السعادة من (بكور)

بكور

«بكور» للحجا والعدل دار
وللأدب الرفيع بها ثمار
تصافحها السكينة والوقار
ومن جناتها «ينكيحصار»

تورفان

و « ترفان » ترى الآثار فيها
عن الاويغور تخبر زائريها
وبين رياضها تلقى كروما
هي الشهد الندى لمجتنيها

* * *

ترى القنوات تحت الأرض تجرى
بها فتخالها من غير نهر
ترى الجنات تملأها ثمارا
كأن حياضها من نبع سحر

قمول

« قمول » سمت عرينا للاسود
ومنبع غارة وحمى جنود
تدانت من حدود الصين قربا
وعزم رجالها فوق الحدود

غولجا ، اوروسجى

و « غولجا » آية المدن الكبار
و « آلتاى » الغنية بالنضار

وما أنسى « مناسا » أو أوروجى
كلا البلدين حصن للفخار

* * *

بلاد أخلصت لله عزما
ودانت بالهدى عملا وعلما
فتبصر حربها هما بأسا
وتشهد سلمها كرما وحلما

* * *

فيوم للجهاد وللسيوف
ويوم للصلاة وللصفوف
ويوم للعلــوم والف يــوم
لرعى الجار أو كرم الضيوف

* * *

تراهم كل حين فى اتحاد
وفى لغة وفقه واعتقاد
ولست ترى على الدنيا وفاقا
كمثل الترك فى تلك البلاد

* * *

ولست تـــراهم متعصبينـــا
ولا في نحلة متشيعينا
ولكن في حياد واتحاد
رأى الاسلام عزمهم حصونا

* * *

« سلام الله لا أرضى سلامى »
وشوق ليس يحصيه كلامى
وألف تحية لك يا بلادى
« وكل تحية دون المقام »

* * *

متى ألقى السعادة في رباها
وأسمع صوت قلبى في صداها
متى تدنو بى الأيام منها
دنو الروح من جسم قلاها

* * *

أبيت الليل في سهر ووجد
وليست سواكب العبرات تجدى
اليها وحدها ألمى وشوقى
وفيها وحدها ألمى وسعدى

* * *

ﻣﻜﺒﺖ على هواها الدمع سيلا

وهمت بحبها صبحا وليلا

فقل للعرب والاتراك جمعا

أنا قيس وتركستان ليلى

* * *

فياوطنى وهبت لك الفؤادا

وياوطنى صدقت لك الجهادا

أريد لك العلا والعيش صفوا

وحيث أعيش كنت لى المرادا

* * *

لأجلك غربتى ولك اشتياقى

وفيك صبابتى ولك احتراقى

وما أنساك يا وطنى زمانا

ولو بلغت بى الروح التراقى

* * *

ألا زالت طيورك فى غناء

أما برحت رياضك فى نماء

وكيف الاهل ياوطنى فانى

غزيز الشوق متصل البكاء

* * *

وكيف جبالك الخضر العوالى
تتوجها السحائب من لآلى
وكيف منازل أقبلت منها
على الأيام اقبال الهلال

* * *

ربوع صباى ما أحلى صباها
وسلء دمى ووجدانى هواها
رحلت الى سواها فى البرايا
وليس لراحتى وطن سواها

* * *

قبست أوائل الانوار منها
وأروى النور والاشراق عنها
أصون لحبها قلبى طهورا
واهتف دائما يارب صنها

* * *

أدمها يا الهى فى ازدياد
بفضلك واحمها من كل عادى
وأبلغنى بلادى عن قريب
فان العيد يوم أرى بلادى

* * *

بلاد هيمت قلى

تحيـــاتى الى الاقمـــا
ر من أبطال طوران
تحيـــات تفـــوق العط
ر من روح وريحان
الى شعـب سمـا ونمـا
عـلى مجـد وايمـان
بـلاد هيـمت قـلبى
لأن بهـن أوطانى
بـلاد قـد سـمت قـدمـا
بـأعـلى مـن « تيانشان »
معاذ الله بل هى فى
عـلاهـا فـوق كـيـوان
بـلاد هـدى ومـعـرفـة
كـنـوز حـجـى وعـرفـان
لـنـا عـلـماءهـا للديـن
فيهـا خـير بنيـان
وكـم لمـلوك تـركستـان
مـن عـز ومـن شـان

فسل عن جيش تيمور
لتعرف أى طوفان
أسود الغاب من ختن
وسن قومل وترفان
مآثرهم تحدثنا
فتعجز كل سحبان
فضائلهم كعطر الورد
فى أيام نيسان
مساكنهم هى المرآ
ة من جنات رضوان
اذا ما زرتها لم تلق
فيها غير بستان
هى الفردوس فى نهر
وفى زهر وأفنان
تؤم الطير كعبتها
الى ظل وأغصان
فواكه ثم ناضرة
بأشكال وألوان

فمن تين الى كرم
وتفاح ورمان

ولو عدت معادنها
لفاقت كل تبيان

ديار النعمة الخضرا
ء من حسن واحسان

لجين الماء يجرى بين
أصقاع و وديان

فتلقى فى رباها ما
يحير أرز لبنان

وتلقى أهلها كالزهر
عاشوا خير اخوان

حياة المجد باسمة
لهم فى كل ميدان

كعقد صاغه الاخلا
ص من در ومرجان

يسير الود من « آقصو »
الى أقصى (نمنجان)

ترى الآثار و الاعلام
والاسلام فى آن

جمال الدين والدنيا
على حقب وأزمان
كأن قبابها العليا
ء فى دعم وأركان
بناها الجن أبراجا
بأمر من سليمان
مساجدها مصاحف من
تسابيح وقرآن
بها الانوار يسقى الشهد
منها كل ظمآن
فتطفىء من حشاشته
لظى وجد وأشجان
تناجيها أمانى الشو
ق من هضبات عدنان
كأن الماء ذوب التبر
يجرى من (زرفشان)
فسيحون وجيحون
هما للمجد نهران

اذا سقى الهزار بها
تعلم حسن الحان
وغرد فى شواطئها
بشدو منه رنان
كأن صداه فى الأعواد
من أوتار عيدان
لها ملك عريق النبع
فى دول وأزمان
ترى خير المساكن فى
رباها خير سكان
ملوك شيدوا الاسلام
فى عز وسلطان
فحيا الله فى أوج الا
معالى كل خاقان
وبورك آل غزنين
وسلجوق وسامان
وجغتاى وأزبك
والاكارم آل شيبان

وأبطال علت أسما
وهم نظمى وأوزانى

ترى عنوانهم فى الفتـ
ـح يسبق كل عنوان

فضائلهم نجوم الدهر
بين هدى وبرهان

تفوق على الزبرجد
حين يشرق من (بدخشان)

هم سبقوا الأوائل قبل
رومان ويونان

ترى آثار (اويغور)
تحير كل فنان

بها البعثات قد كشفت
حقائق مذهب المانى

وقد أبدى دقائقها
(لكوك) وهو ألمانى

وكم للترك من أثر
أجاد صروحه البانى

وتلقى ذكرهم فيهـا

يـدوم بغير نسيـان

يـرددهـا مشـاة فى الليالى

بـعـد ركـبـان

وتنشدها القوافل من

ذرافـات ووحـدان

بنوها بالعلـوم وبـا

علوم وبـالدم القـانى

فلا زالت مفاخـرهم

تـدوم رفيعـة الشان

تـحـياتى أرددهـا

وهذا طـوق امـكانى

الى الأقـيـال والاجيـا

ل من أيـفـال طـوان

مدينة بوكور

وطن الجد (بوكور)
وهى للاسلام نور
وطن يبعث فيك الـ
ـبشر دوما والسرور
فهى للعليا سماء
قد حوت كل البدور
وهى للآداب روض
أينعت فيه الزهور
وهى بستان علوم
غردت فيه الطيور
ان سوق العلم دوما
فى حماها لن تبور
وترى القرآن فيها
مالئا كل الصدور
علماء نهضوا
بالعلم فيها كالبحور
من هو الكوكب فيها
هو (داملاعشور)

علـم السنبـل المـجلى
أمـد المـجـد المهصور

حكـم التـفسير مـنه
مشرقات فى العصور

ذكره فى صحف
الامجاد ترويه الدهور

مـن (عشور ياصحابى) ؟
هـو نـور فـوق نـور

قـد نماه للـمعالى
وطن المجد (بكور)



(بوكور) ايضا

(بكور) جنة الخلد
وفيها موطن المجد
ومنها مشرق العلم
يرينا مطلع السعد
زكت روضا وأغصانا
بلا حصر ولا عد
وفيها نهر دينار
سقى الأوطان بالشهد
جرى سلسالها تبرا
رحيقا صافى الورد
وكانت أول الاسلام
للاسلام كالحد
وفيها العز موصول
كبحر دائم المد
بها العلماء أقمار
نموا فى أكرم المهد

كأن أبا حنيفة في
ربـاهـا ملهـم الرشد
بها العلماء والأقطا
ب من شيب ومن مرد
بهـا التـأليف والتصنيف
نور للحجا يهدي
بلاد عندها قلبي
لأن ضياءها عندي



وأيضا

أيـابـو كـورتيهى بـالفخار
فـانـك درة بـين الديـار
حويت العلم كنزاً بعد كنز
يفوق على اللالى والنضار
وكم من مسلم بك قد رأينا
يعيد لنا أحاديث البخارى

